الفصل الأول:
النورسي أديبا

- النورسي أديبًا
- إسطنبول بين الدين والأدب
- النورسي من منظور الأستاذ حسن الأمراني
- هكذا علَّم "النورْسي"

oneikandl.com

obeikandl.com

النورسي أديبًا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اَلرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

(الرَّحْمَن:١-٤)

١- الرحلة إلى منابع الجمال

جئتَ -أيها الصديق العزيز- تطلب قلب النورسي بين قلوب الأدباء؟. حسنًا.. أنا أدلّك عليه، وآخذ بيدك إليه..

أُنْظرْ... إنه هناك.. بعيدًا، بعيدًا.. وراء تخوم العالم، وفوق حدود الأكوان... سابحا بين عوالم المعاني الفائضة من أسماء الله الحسنى... يروح ويغدو متلمسا جمال الوجود، وملتقطا لآلئ الحسن من فوق جيد الأكوان.. هذا العَطِشُ المحترق بعطشه، المتسعر بوجده.. ما ناغى الجمال أحد مثله.. ولا ذاق من رحيقه أحد كما ذاق، ولا شرب كؤوسا مترعة من كوثره كما شرب.. حتى إذا ثمل، وانتشى هوى ساجدا بين يدي الله تعالى سجودا أبديا لم يَقُمْ منه حتى توقف نبضه، وأغمضت أصابع الموت أجفان بصره وبصيرته.

والنورسي عقل يفكر، وروح يستعر، وشوق يلتهب، ورغبة تتوجع، وحزن يتفجع.. فإن لم يخلق هذا أدبا فما الذي يخلقه إذن؟! وإن لم

يصنع هذا أديبًا فما الذي يصنعه إذن؟!

ومنذ نعومة أظفاره وهو فتى يدرج في شعاب قريته، شعر بأنامل الجمال وهي تتحسس مساقط الحياة من سويداء الروح، فإذا قلبه بلبل غريد يغرد بألف لسان ولسان، وإذا روحه نشيد تتردد أصداؤه بين قمم الكلام من جميع اللغات.

٢- ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

ومراتع الجمال الأولى لقلبه الفتي كانت قريته "نُورْس".. إنها بين قرى الأناضول كشعاع الروح في ظلمة النفس.. في الإصباح تتلفع بأوشحة شفافة من ضباب لؤلؤيّ فاغم العطر.. بينما فؤاد الأرض العطش يستقبل زخات مطر بين آونة وأخرى.. وسنابل القمح الذهبية في باكورة الصيف تظل تستقبل بلهفة دفقات حنان من نور الصباح ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(سبأ:١٥).

والنورسي في هذا المهرجان الجمالي الذي تتناغم فيه الألوان والصور الأصوات يغدو عينا لماحة تَلُمُّ لآلئ الحسن المنتشرة في الحقل والوادي والجبل، وعلى الشجر وفوق الزهر، وروحا شدها بكل شيء فيغدو وترا مشدودا مستوفزا يتحرك للهمسة، ويرن للمحة والخطفة.. لا شيء عتيق في رأي النورسي ولو رآه كل يوم، ولو ألفه وسكن معه وساكنه السنين الطوال، لأنه يرى في "المألوفات خوارق العادات، وفي المكرورات لمسات الخلق الدائرات المتجددات مع اللمحات واللحظات"[٤].

---

[٤] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣٢١.

٣- الوجود والعدم

وتصرخ روحه في ظلمة الليل وقد انتابه قلق مريع وأرق وجيع: يا للهول.. هذا الموت الذي يطال كل شيء حي هل من منقذ منه؟! وهذا العدم الذي يطوى كل موجود أما من فكاك عنه؟!

إن قضية جديدة بدأت تتشكل ملامحها في ذهنه الفتي، وتستأثر بجل اهتمامه، وهي قضية الصراع الرهيب بين البقاء المتشبث العتيد، والفناء المتشبث العنيد، منذ أن سمع والده وبعض ضيوفه يديرون حوارا بينهم حول الموت والحياة، والوجود والعدم. وفي إحدى الليالي وهو في الفراش حيث يتقلب على إبرٍ محماة من القلق والأرق، يسأل نفسه: "لو خيرتَ -يا سعيد- بين العدَم وبين الوجود -حتى في جهنم الحمراء- فماذا كنت تختار؟" ويجيب:

"إني -وبلا تردد- أختار الوجود حتى في جهنم الحمراء على العدم، ولئن أكون شيئا ما يحترق خير من أن لا أكون على الإطلاق".

وبعد سنين من تلْكم الليلة المريعة، وبعد تفكير عميق في ظاهرتي الموت والحياة، والوجود والعدم يخلص إلى أنه لا فناء ما دام خالق الوجود موجودا، ولا موتا ما دام واهب الحياة حيا، فالفناء في الحقيقة هو عين البقاء، والموت هو عين الحياة.

ويضرب لذلك مثلا فيقول:

"إن هذه الزهرة الجميلة التي تنظر إليك مبتسمة، لا تلبث إلا قليلا حتى تذبل وتموت، إلا أنها تظل حية في بذرتها التي

فيها خارطة حياتها، وفهرس وجودها، وهي حية كذلك في ذاكرة المشاهدين، وفي مخيلة الكون، وفي علم الله.. وكذلك الإنسان فإنه يموت من جهة إلا أنه إذا مات يرجع حيا في علم الله، ثم يعود إلى عالم الخلق والتكوين مرة أخرى للحساب والثواب والعقاب"[٥].

ولعل إلى هذا يشير القرآن الكريم حيث يقول على لسان الكافرين: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾(غَافِر:١١).

٤- المواجيد والأشواق

يا وجد القلوب.. يا شوق الأرواح.. يا لهيب الفكر... تأجّجْ وتوهج، وازدَدْ تأجّجا وتوهجا.. فقلب بلا وجد، وروح بلا شوق، وفكر بلا لهب، أشلاء نفس ميتة ومساكن ظلام، وأعشاش عفونات.. فالإيمان ينأى عن مساكنة الظلام، أو العيش بين الأموات.

ولكي يدخل النفس بدون استئذان، يصوغ النورسي المقاصد الإيمانية صياغة فنّية وأدبية، حتى إذا ما زجت النفس، وخالطت القلب، أضاء الروح، وتوهج الوجدان، وتألق العقل، واستضاء الفكر، وسمت الحياة وطهرت وعادت كما بدأ الله أول خلقها.

فكل شيء -عند النورسي- من ينبوع الجمال والجلال الإلهيين يأتي، وإليهما يعود.. وإن المحبة أصل الوجود، والجمال جوهر الكون، ومن

---

[٥] المكتوبات (المكتوب الرابع والعشرون/المقام الثاني / المبحث الثاني/الإشارة الثانية)، سعيد النورسي.

دونهما فلا كون ولا وجود ولا خلق.

٥- الخَلْق والفرح الإلهي

ولأن من صفاته تعالى "الخالق" فهو لا بد أن يخلق فهو "خلاق" إلا أنه يحب ثم يخلق، فهو يحب خلقه قبل أن يخلقهم، ويحبهم بعد أن يخلقهم، فكما أن كل صانع يحب صنعته ويفخر بها، ويباهي بها، ويشعر بالزهو بسببها، فكذلك الخالق -ولا مناقشة في المثال- فإنه يحب خلقه، ويفرح بهم، ويباهي بهم، ويسبغ عليهم وده ولطفه ورحمته.

ويعبر النورسي عن قدسية هذه المعاني قائلا:

"وله -جل وعلا- ما يشبه المحبة -تليق بذاته سبحانه- بمقدار سعادة مخلوقاته، وبمدى تنعمهم وفرحهم.. وله شؤون ربّانية مع خلقه يتعذر التعبير عنها، وقصارانا أن نقول: إنها لذة ربانية لائقة بذاته ﷻ، وعشق رباني غاية في القداسة، وفرح رباني عالي القدسية، وسرور للذات الرباني يند عن الفهم والوصف، بحيث إن كلاً منها هي أسمى وأرفع وأنزه بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والقداسة مما يظهر في الكائنات، وما نشعر به من العشق والسرور بيننا وبين الموجودات بعضها مع البعض الآخر"[٦].

ثم يزيد في التوضيح فيقول:

"وهكذا فإنْ كان إنسانٌ صغيرٌ عاجزٌ عن الإيجاد والخلق يغمره السرور إلى حد الاختيال بمجرد صنعه صنعة صغيرة، فكيف بالصانع الجليل خالق هذا الكون الموزون المموسق

---

[٦] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٧٤٤، مع تصرف بسيط جدا.

openkanal.com

والذي جعل منه حاكيا عظيما يحكي قصة الخلق والخليقة، ويبث أصداء تسبيحات أهل الأرض إلى السماء، والذي خلق رأس الإنسان بعقله وحواسه حاكيا ربانيا آخر يَبُثُّ موسيقى المشاعر والأحاسيس، في الليل والنهار، وفي اليقظة والمنام، وفي جميع الأوقات، ولا تسكن هذه الموسيقى حتى تسكن فيه الحياة"[٧].

٦- مرآة التجليات الإلهية

هاأنذا أسمع صوت الوجد الشجي يملا قلب النورسي وأكاد أبصر مرايا فؤاده وهي تتكسر وتتطاير شظايا في الفضاء شوقا الى جمال المعاني.. إنه يستقطر دموع الجمال وهو يخب صعدا نحو رؤى جمالية بعيدة المزار، كلما اقترب منها ازدادت بعدا، واشتطت نأيًا.. إنه ذلك الجمال الخلاق الساري بين الرؤية والرؤى، بين عين الرأس وعين القلب، بين جمال المحسوسات والمبصرات والمسموعات وجمال المجردات من المعاني المتجليات على الأرواح الطاهرات.. إنه جمال مَصُونٌ محاط بسور من نار ونور، لا يَطَالُه إلاّ المنوَّرون الذين يطفئ نورهم النار، ويرقى وجدهم فوق الجدر والأسوار.

هذا الجمال الذي هام به النورسي والذي يشكل جوهر دعوته، وجده معنى عظيما متجسدا وقائما في الذات المحمّدي عليه السلام، في جسمانيته وروحانيته، في خَلقه وخُلقه، إنه كما يصفه النورسي:

"مرآة الجمال الإلهي الأقدس، ومجسم أنوار أسمائه الحسنى، وموضع تجلياته، ومصبُّ محبته، وعنوانُ رحمته على الأرض".

---

[٧] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٧٤٥، مع تصرف بسيط جدا.

ثم يمضي فيقول:

"فالله تعالى يحب كماله الذاتي. ويحب جمال صفاته، وجمال أسمائه الحسنى محبة لائقة به جل وعلا، ويحب أيضا محاسن مخلوقاته، وصنعته، ومصنوعاته، وسلطان الأولياء حبيب رب العالمين، أي: لمحبّته لجماله يحب أصفى المرايا وأشدها نقاء العاكسة لهذا الجمال من الموجودات ومن بني الإنسان"[٨].

٧- محمد ﷺ.. أديب الإنسانية

فأي أديب عظيم كوني الآفاق، إنساني النزعة، أممي النظرة، يمكن أن يكون من كان قلبه الشريف مهابط أنوار القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة.. ومن كان روحه السامي مُضَمَّخَ أندائه، وذاتُهُ الشريفة صنيع جماله وجلاله، فأصبح بذلك كونًا إنسانيًّا شاسع الأرجاء يقطر من جميع أنحائه ماء الجمال والجلال، وتتساكب من سحائب أنواره بارقات العقل، والتماعات الفهم والحكمة والإدراك الأشمل والمعرفة الأعمق لآلام البشرية ولأوجاع قلب الإنسان، وصدق عليه السلام حين قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[٩].. الأمر الذي حمل "برنارد شو" فيلسوف الإنجليز وأديبهم الكبير على الإعجاب به حيث يقول عنه: "أعطِهِ أية معضلة من معضلات بني الإنسان يجد لها حلاً قبل أن ينتهي من آخر رشفة من فنجان قهوته".

---

[٨] انظر: الكلمات، سعيد النورسي، ص ٧٤٠-٧٤١، مع شيء بسيط من التصرف الذي لا يخل بالمضمون.

[٩] فيض القدير للمناوي، ١/٢٢٤.

obeikandl.com

والنورسي تلميذ القرآن، وتلميذ رسول القرآن.. يرى كتاب الله تعالى، وإن كان هو في الأساس كتاب إيمان وتوحيد وتشريع، إلا أنه كذلك كتاب أدب حي لا يموت، لأن متنزل القرآن حي لا يموت؛ فالذي يأخذ عن القرآن يأخذ من حي عن حي، أما من يأخذ عن كتاب غيره فهو يأخذ من ميت عن ميت، "فمن أين تأتي الحياة من فاقد الحياة؟!" كما يقول.

وما من أديب من أدباء العربية المرموقين في الماضي والحاضر إلا وهو متأثر بالقرآن بقدر أو بآخر؛ فهو خزين علوم العربية وكنزها الذي لا ينضب.. منه تأخذ وإليه تعود فيما يَعُنُّ لها من إشكالات لغوية أو بيانية أو أدائية.

٨- أدب الإيمان

والحس الشاعري والأدبي المرهف يطفر عفويا من قلم النورسي وهو يعالج قضايا إيمانية غاية في الأهمية؛ فعقله المجنّحُ يسابق روحه في استشرافاته على الأعالي من شؤون الإيمان، فعقله وقلبه عملا معا على إرساء قواعد معرفة إيمانية أراد النورسي أن تكون لها الصدارة بين معارف الإيمان.

وأكثر رسائله التي يبدو فيها حسه الأدبي والشاعريُّ واضحًا، ويفصح عن تلازم أبديٍّ بين عقله وقلبه كتابه الموسوم "المثنوي العربي النوري" الذي استأنس في تأليفه بـ"المثنوي" لمولانا جلال الدين الرومي، إلا أن الفرق بينهما أن مثنوي الرومي كان بالفارسية، أما مثنوي النورسي فهو بالعربية، وهو وإن لم يكن شعرا كمثنوي الرومي إلا أن أنفاسه شاعرية أدبية بإجماع "النقّاد".

وفي منهجه في تأليفه للمثنوي يقول النورسي:

"إنه سلك سبيلا قلَّ سالكوه في تأليفه، إذ حاول السير مع العقل ولكن تحت نظر القلب، ومع القلب ولكن تحت نظر العقل"[١٠].

ويقول:

"لو عشتُ زمن "الرومي" لكتبتُ "المثنوي" الذي كتبه، ولو عاش هو زماني لاضطر إلى كتابة "رسائل النور" التي كتبتُها"[١١].

وكلامه هذا ينمُّ عن خزين أدبي عظيم لم يستخدم منه إلا القليل الذي يخدم رسالته الإيمانية التي كرس لها حياته.

وإن كانت "دولة الأدب" ترحّب بقلم النورسي كواحد من أبرز أقلامها، إلا أن قلمه الأكبر والأعظم كان أكثر انتماء، وأشد تعلّقا بدولة الإيمان، ورسالته الأخطر في عصره؛ فاختلاف العصور يوجب كذلك اختلافات في أنماط التفكير، واختلافات في أساليب تناول الإشكالات الفكرية والإيمانية التي يطرحها عصر دون عصر.. فعصر النورسي هذا العصر الاكتساحي لكل ما توارثته البشرية من قيم دينية ومثل أخلاقية وفكرية عصر الشك حتى في بديهيات العقل، استدعى أنماطا من التفكير وأساليب من المعالجة لم يكن "الرومي" مُضْطَرًّا إليها.

والامتزاج والتنافذ بين عقله المجنح وروحه المحلق، هو ميزة "أدب الإيمان" الذي كان النورسي واحدا من رواده الكبار في هذا العصر.

---

[١٠] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٤٨.

[11] Son Şahitler, Necmettin Şahiner, 1/318.

openkalem.com

٩- "النورسي" والفكر الأوروبي

وليس صعبا على النورسي ذي الذكاء الخارق والعقل الاستيعابي الشمولي أن يحيط بكليات الفكر الأوروبي الحديث، وَيَلُمَّ بفلسفاته وعلومه، ويطلع على إيجابياته وسلبياته، ويقف على تأثيراته في "الإنسان المعاصر" وفي تكوين أفكاره الجديدة، وتغيير نظرته إلى الوجود والحياة، وأخيرا كيف دفع هذا الفكر بمعطياته المادية بشرية القرن العشرين، إلى هذا الموقف البارد واللامبالي من الدين والإيمان عند البعض، وإلى العداء الصريح عند البعض الآخر.

والنورسي بنزعته الموسوعية، ونظرته الشمولية التي كانت طابع حياته الفكرية والروحية منذ تَفَتُّحِ وعيه على الحياة، شغوف بالقراءة والدرس والتفحص والتأمل، يقرأ في علم النفس، ويدرس الفلسفة، ويهتم بفسلجة الإنسان التشريحية، ويلم إلمام المتخصصين بالرياضيات والفيزياء والكيمياء، وبعلمي الحيوان والنبات، ويتأمل في العلوم الفلكية، ويرصد ويطّلعُ على أحدث نتاجات الفكر الأوربي المترجمة إلى التركية من قبل بعض المرموقين من المثقفين الأتراك، ويرصد النجوم من مرصد فلكي في مدينة "وَانْ" كان قد استقدمه من "أوروبا" أحد ولاة المدينة.

وبعد ذلك كله يستخدم ما أفاده من هذه العلوم والمعارف في خدمة "الإيمان" القضية الكبرى التي كرس لها حياته، وأوقف عليها وجوده.

ولما كانت الموجودات في هذه الدنيا -كما ينظر إليها النورسي-:

"هي أمثلة مصغرة لوجود أخروي كبير، وأطياف خيال لحقيقة أخروية أعظم وأشباحا باهتة لرؤى فكرٍ أخرويّ غاية في السَّعَةِ

والشمول والدقة والعظمة.. لذا فإن كل موجود هنا في عالمنا الصغير هذا موصول بما يناظره هناك، وكل معنًى هنا مرتبط بمعنى أسمى وأعظم هناك؛ فالدنيا مرتبطة بالآخرة، وحبُّ البقاء والكمال عند الإنسان هنا يؤكد معنى الخلود والبقاء والكمال هناك، و"الصُّورُ" الذي ينفخ فيه الربيع ليبعث من الأجداث مئات الألوف من أنواع النبات والحيوان والحشرات كلَّ سنة، إيماءة واضحة لصورٍ أكبر، وحشر أعظم يوم القيامة.. والحافظة في مخّ الإنسان -وهي بحجم حَبَّةِ خردل، والتي تحتفظ بشريطٍ مسجلٍ لماضي الإنسان وما وقع له من أحداث- هي مثال مصغّر لحافظة أخروية أوسع وأكبر تحفظ سجلاً كاملاً لتاريخ حياة الإنسان على هذه الأرض، ليعرض عليه في الآخرة عند مناقشته الحساب".

١٠- فكر "المعاناة"

وكلّ كلمة قالها أو خطّها أو أملاها على تلامذته إنما هي حقيقة بعيدة المنال، خاض إليها الأهوال، وقطع الفيافي والقفار، وعبر إليها بحورًا من حُجُبِ النفس والوجدان، وقاسى من أجل اقتناصها أشدَّ المقاساة، قبل أن تتجلى في سماء ذهنه مجلوة مشرقة مبرأة من ظلال الشكّ وسحائب الوهم كالشمس الطالعة في ضحى يومٍ صائفٍ.

وليس النورسي صاحب قلم باردٍ يغمسه في مداد فكر بارد، ليكتب ما يشاء وقتما يشاء.. إنما هو المعاناة الجريحة المدماة التي تنزف فكرًا فيه حرارة الروح، ودفء القلب.. وإنما هو السحابة المثقلة بماء الحياة والتي لا يدري أحدٌ متى تبرق وترعد وتغيث.. وإن شئت فاستمع إليه يقول في

وصف حاله عندما كتب "مثنويه":

"... والكلمات إنما تولّدَت إثر جدال هائل، ونقاش عظيم مع الفكر وسَطَ إعصار تتصارع فيه الأنوار مع النيران، فأحسُّ برأسي يتدحرج في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ثم يرتفع من الحضيض إلى الأوج، ومن الثرى إلى الثريا؛ إذ سلكت طريقًا غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب، ودارَ عقلي من دهشة السقوط والصعود.. فكلما صادفتُ نورًا نصبتُ عليه علامةً لأتذكره بها، وكثيرًا ما أضع كلمةً على ما لا يمكن التعبير عنه للإخطار والتذكير، لا للدلالة، فكثيرًا ما نصبتُ كلمةً واحدةً على نور عظيم".

والنورسي نفس شاعرة، وروح لهيف، وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نفّاذةٌ مذواق، وبصر لمّاح رصّاد لا تفوته بارقة من بوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه، وطائر عجيب يلقط لآلئ الحسن من فوق جيْدِ الوجود، وظامئ عطش يرتشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان.. ومع كونه يملك كلَّ صفات "الشاعر العظيم" إلا أنه لم يقل شعرًا، أعني أنه لم ينظم شعرًا كما ينظم الشعراء، ولكن ما قاله في المثنوي رغم أنه يحمل ميزات "النثر" ومقوماته شكلاً وقالبًا إلا أنّه شاعري الروح والنفس، وجداني الانسياب، رشيق في صوره وأخيلته مع عمق أفكاره ودقيق معانيه.

والشعر -بعد هذا أو ذاك- قد يضطر للمبالغة في كثير من الأحيان حتى يحفز ويثير ويحرك، وهو من أجل تصوير معنًى من المعاني، وتجسيم قيمة من قيم الجمال والحق قد يجنح إلى ما وراء المعقول، ويهبط في

خياله على "اللامعقول" من الأخيلة والصور.

وكلام النورسي في مثنويه -رغم روحه الشاعرية- منزه عن هذا كله، فهو يتفاعل مع صور "الحقيقة" ويتحاور مع آثارها، ويناقش ظلالها على صفحة الوجود، وهو لا يفعل أكثر مما يفعله الرسّام البارع في الصور الباهتة وقد حَالَت خُطُوطها، وانطَمَسَت معالمها، واختلطت ألوانها، فيمرّ عليها بفرشاته المطواع ليبعث الدفء والحرارة فيما بَرُدَ من ألوانها، ويُجسِّم ما غام وشحب من معالمها، ويمنحها أبعادها التشكيلية، ويهب الرائي عمق الرؤية، ونفاذ النظر إلى دواخلها.

ولو أردنا أن نصف كتاب "المثنوي العربي النوري" لقلنا:

"إنه ليس سوى لوحة فنّية رائعة الجمال، رسمها فكر ملتهب، وكوَّنها قلبٌ دامٍ، وسكب عليها الظلّ والضياء روحٌ حزينٌ مغترب... فلا عجب إنْ شَدَّت -هذه اللوحة- إليها الانتباه، وقيدت بها الأفكار، وحبست عليها الأرواح، وأوقفت لها القلوب. وهي بموسيقية ألوانها، وتناغم ظلالها وأضوائها، وإشراق آفاقها، وامتداد أمدائها، وعمق أبعادها، وجمال تعبيرها، تأسر الألباب، وتَشْدَهُ النفوس، وتَهُزُّ رواكد الأشواق في الإنسان إلى "ما وراء" هذا العالم الضيق المحدود، وإلى "ما وراء" هذه الحياة التي مهما طالت فهي دون ما يرجوه من خلود، ودون ما يراوده من آمالٍ في البقاء والأبد"[١٢].

---

[١٢] انظر: مختارات من المثنوي العربي النوري للنورسي، اختيار وتقديم: أديب إبراهيم الدباغ، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل/العراق، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، ص:١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦.

١١- البلبل

نعرض هنا إحدى روائع النورسي "الأدبية التي ترقى به إلى مصاف الأدباء الإسلاميين الكبار، فهو في هذه القطعة يرتفع إلى القمة التي ارتفع إليها شاعر الصوفية الأكبر "مولانا جلال الدين الرومي":

"أيها البلبل الغريد.. يا ملك اللحن والغناء.. يا صناجة الطير وقيثارة الغاب.. تغنّ يا عاشق الأزهار.. واسكب حنان قلبك وأشواق روحك في أذُن الورود وأسماع الأزاهير.. ففي صوتك الشجي ظمأ الطير كلها إلى "الزهرة "، ملكة النبات، وأميرة الحقول والبساتين والغابات لتبثها -باسم كل ذي جناحين- رسائل الود والعشق والمحبة، وتعلن لها -بلسان الطيور- الشكر والامتنان لمملكة النبات على ما تهديه من أرزاق وأقوات لضيوف الرحمن على هذه الأرض.

تنتقل من فنن إلى فنن، وتطير من زهرة إلى أخرى جذلان منتشيا، وتنظر بعين الشكر إلى هذه الأرزاق المسوقة إلى أبناء جنسك، وهذه الأقوات المهداة من خزائن الرحمة الإلهية إلى الأفواه الجائعة، والمعدات الخاوية.. فيستخفك الفرح، ويهزك الكرم الإلهي العميم، فتصفّق بجناحيك الصغيرين، وتطلق باسم كل طير وحيوان أصوات الترحيب والتهليل، وترسل ألحان الحمد والشكر والثناء.. وتغمر زهرتك بفيض حبك، ومذاب عشقك، ويتساكب وجدك كأنداء السحر فوق وجه هو ألطف الوجوه وأرقها.. وتنساب قبلات فؤادك على ثغر هو أشهى الثغور

وأعذبها.. وتدلف إلى محاريب الطهر والنقاء حيث العذارى من أزاهير الروض وقد غدون شفاها مسبحة، وقلوبًا ولهى ذاكرة، فتلملم من فوق الشفاه تسابيحهنَّ وتجمع من بين الضلوع ذكرهُنَّ، ثم تمضي بصوتك العذبِ الحنون تسبّحُ عن كل زهرة، وتذكر بلسان كل وردة على عتبة مقسّمِ الأرزاق، ومالكِ الملْكِ، وعند باب الرحمن الرحيم ذي الجلال والإكرام.

هذا بعضُ ما نستشفهُ من ألحانك -أيها البلبل العزيز- وبعض ما نحدسه من تغاريدك.. وربّما أنت تقول أشياءَ أخرى لا نرقى إلى فهمها، وتودعُ أُذُن الكون رسائل لا ندرك كُنْهَه، ولا نعلمُ سرَّها.. وربَّما أنت نفسك لا تفهمُ مقاصد ما تؤديه، ولا تدرك مغازي ما تفعله، ولكنك -على رغم ذلك- سعيد بعملك، مبتهج بواجبك.. أما الملائكة والروحانيون المبثوثون في أرجاء الكون، فإنهم أقدر منا ومنك على فهم ما تقول، وعلى إدراك ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلك وينقلون أحاديثك إلى أبواب الحضرة الإلهية.

فجهلك -يا بلبلي العزيز- إن كنتَ جاهلاً حقًّا بهذه الغايات والمقاصد لا يعني عدم وجودها، فأنت كالساعة تشير إلى الزمن، وتعلمنا الوقت، ولكنها لا تعلم هي ما تفعل..

فاعتصرْ لذا ذات عملك من جمال الأزاهير، وتناول أذواق قلبك وروحك من أحاديث الورود، وتمايلهن على الغصون، وابثث ما شئت من أحزان بين أيديهن... فنغماتك مهما بدت حزينةً شجيةً فهي ليست شكاوى وآلامًا بقدر ما هي شكر وثناء وحمد لعطايا الرحمن وآلائه".

* * *

ولا يذهبن بك الوهم -أيها الإنسان- فتحسب أن "البلابل"، هي لعالم الطيور وحدها، وأن أنواعًا أخرى من مخلوقات الله لا تعرف من يسبح باسمها، ويرفع آيات شكرها وحمدها لبارئها، فلكلِّ صنف ونوع بلبله الخاص به، وحتى العناكب والنمل والنحل لها بلابلها التي تلحن تسبيحها، وتغرد أشواقها ومواجيدها، وهي بالوقت نفسه لها هداياها التي تحصل عليها من خلال عملها، من متع تغريها بالمزيد من الجد في أداء واجبها في خدمة الصنعة الربّانية، مثلها في ذلك مثل القبطان الذي يقود سفينة سلطانية في عرض البحار، فإنه زيادة على المرتب الذي يتقاضاه من خزانة الدولة فهو يستمتع ويلتذ بما يشاهد من مناظر جمالية تعرض له أثناء إبحاره وتطوافه بين الضفاف والشطئان.

هكذا فلكل نوع من أنواع الكائنات بلبله الذي يلتقط من مجاميع النوع الذي يمثله ألطف حسياته، وأرقّ مشاعره، وأعذب مواجيده، ثم يغرد بها ويشدو، ويسجع وينشد.. فما من أُذُن في هذا العالم، وما من سمع في هذا الكون إلا ويلتقط ما يناسبه ويلذه من هذه الألحان والتغاريد من أصغر المخلوقات إلى أكبرها. وقسْم من هذه "البلابل" ليليّة التغريد، فهي تنشد قصائدها في دواوين الليل الساجي، فتحرك بهذا النشيد في هدوات الليالي مكنونات القلوب، ومشاعر الأرواح، تماما كما يفعل الأقطاب والمرشدون في تحريك الذاكرين، وتنشيط المتكاسلين من الدراويش والمريدين في حلقات الذكر، وعندئذ يبدأ الجميع -كُلٌّ بلغته الخاصة على قدر حاله- بذكر الله سبحانه وتعالى والتوجه إليه بالشكر والمحبة والتعظيم والخشوع.

إذن فكل نوع من أنواع الموجودات -وحتى الأفلاك والنجوم- لها رئيسها الذي يقود حلقة الذكر فيها، وبلبلها الذي يلحن في عتمة الفضاء الوسيع أنوارها، ويغرد أضواءها.. ولكن، أتَدرون مَن هو بلبل البشرية وعندليبها، وصاحب مواجيدها وأشواقها، وحامل آلامها وآمالها، والهاتف بصوت عقلها وقلبها؟! إنه أفضل بلابل الكون وأشرفها، وأعذبها صوتا، وأعلاها نداء، وأرقّها مشاعر، وألطفها حسًّا.. وهو ألْمع بلابل البشرية من الأنبياء والمرسلين نورًا، وأتمّهم ذكرا، وأعظمهم شكرا، وأكملهم ماهية، وأجملهم وأبهاهم صورة.. ذلك الذي كلُّ الكون بستانه، وكل الوجود زهرته، وكل الموجودات أغصانه، والأرض والسماوات روضه.. باعث الأشواق إلى الله، وحادي القلوب والأرواح إلى بارئها.. وكل البشرية أوراده.. المغرّد بالقرآن، والصَدّاح بآيات الله، محمد بن عبد الله ﷺ.[١٣]

١٢- في مراعي "بارلا"

يقول النورسي:

"بينما كنت على قمّة جبل في "بَارْلاَ" أيّام منْفاي، أسرح النظر في أشجار الصنوبر والقطران والعرعر التي تغطّي الجهات، وأتأمّل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها؛ إذ هب نسيم رقيق حوّل ذلك الوضع المهيب الرائع إلى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة واهتزازات نشوة شوق وتهليل، وإذا بذلك المشهد البهيج السار يَتَفَطَّرُ عبرًا أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة

[١٣] انظر: رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان، أديب إبراهيم الدباغ، أنوار نشريات، إسطنبول/تركيا، ص:١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦.

خطرت ببالي الفقْرة الآتية لـ"أحمد الجزري" وهي: "لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك، إنهم مبهورون بغنج جمالك ودل سلطانك".

ويمضي النورسي فيقول:

وتعبيرا عن معاني العبرة بكى قلبي على هذه الصورة: يا رب.. إن كل حيّ يتطلع من كل مكان، فينظرون معًا إلى حسنك، ويتأمّلون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك، فهم كالدعاة الأدلاء، ينادون من كل مكان؛ من الأرض، ومن السماوات العلى إلى جمالك، فترقص تلك الأشجار، الأدلاء الدعاة جذلة من بهجة جمال نقوشك في الوجود، فتصدر أنغاما شدية وأصداء ندية من نشوة رؤيتهم لكمال صنعتك، فكان حلاوة أصدائها تزيد نشوتها، وتهزها طربا، فتزداد تغنجا ودلا ودلالا... ولأجل هذا هبت هذه الأشجار للرقص الجميل منتشية منجذبة. يستلهم كل حي صلاته الخاصة، وتسبيحاته المخصوصة من آثار هذه الرحمة الألهية، وبعد التزود بالدرس البليغ، تنتصب كل شجرة قائمة فوق صخرة شماء، فاتحة أيديها متطلعة إلى العرش. لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية، ومدّت مئات من الأيدي ضارعة أمام عتبة الحضرة الألهية كأنها "شَهْباز قلندر"[١٤]، وتهز أغصانها الرقيقة كأنها الظفائر الفاتنة لـ"شَهْناز الجميلة"[١٥] مثيرة في المشاهد أشواقا لَطيفة وأذواقا سامية.. لكأن هذا الجمال يهز طبقات العشق، بل

---

[١٤] كان خادما لدى الشيخ الكيلاني، وتربّى على يديه، حتى ترقى في مراتب الولاية (المؤلف).

[١٥] حسناء شهيرة بجمالها وجمال شعرها وظفائرها (المؤلف).

يمس أعمق الأوتار وأشدها حساسية أمام هذا المنظر المعبّر يرد على الفكر ما يذكره بأنين حزين، وبكاء مرير، ينبعثان من أعمق الأعماق، المكلوم بألَم الزوال الذي يصيب الأحبة المجازية. إنه يسمع أنغام الفراق والألم الشجية على رؤوس أشهاد العاشقين المفارقين أحبتهم. وكأنَّ هذه الأشجار بنغماتها الرقيقة الحزينة تؤدّي مهمّة إسماع أصداء الخلود لأولئك الأموات الذين انقطعوا عن محاورات الدنيا وأصدائها.

أما الروح، فقد تعلمت من هذه المشاهد، أن الأشياء تتوجه إلى تجليات أسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل، فهي أصداء أصوات تضرعات وتوسلات.

أما القلب فإنه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الإعجاز، سر التوحيد في هذه الأشجار كأنها آيات مجسمات، أي: إن في خلق كل منها من خوارق النظام وإبداع الصنعة، وإعجاز الحكمة، ما لو اتّحدت أسباب الكون كلها وأصبحت فاعلة مختارة لعجزت عن تقليدها.

أما النفس، فكلما شاهدت هذا الوضع للأشجار، رأت كأن الوجود يتدحرج في دوّامات الزوال والفراق، فتحرّت عن ذوق باق، فتلقّت هذا المعنى: "إنكِ ستجدين البقاء بترك عبادة الدنيا".

أما العقل فقد وجد انتظام الخلقة، ونقش الحكمة، وخزائن أسرار عظيمة في هذه الأصوات اللطيفة المنبعثة من الأشجار والحيوانات معا، ومن أنداء الشجيرات والنسائم، وسيفهم أن كل شيء يسبّح للصّانع الجليل بجهات شتّى.

أما هوى النفس فإنه يلتذّ ويستمتع بحفيف الأشجار، وهبوب

النسائم، وينال ذوقا رفيعا بنسيمها (أي هوى النفس) الأذواق المجازية كلّها، حتى إنها تريد أن تموت وتفنى في ذلك الذوق الحقيقي واللذة الحقيقية، بتركها الأذواق المجازية التي هي جوهر حياتها.

أما الخيال فإنه يرى كأن الملائكة الموكّلين بهذه الأشجار قد اختاروا جذوعها سكنا لهم، وأغصانها أردية لهم. وقصباتها هواتف إشواق ترسلها أجوافها أنين نايات شجية، وكأن السلطان السرمدي ﷻ قد ألبسهم هذه الأجساد في استعراض مهيب على إيقاع حزين من حفيف الشجر ومما ترسله النايات من شجى الألحان، فتظهر تلك الأشجار أوضاع الشكر والامتنان له بشعور تامّ، لا أجسادًا ميتة فاقدة للشعور.. فتلك النايات الساحرة الأنغام الصافية الصوت، اللطيفة الأصداء، كأنها منبعثة من موسيقى سماوية علوية، فلا يسمع الفكر منها شكاوى آلام الفراق والزوال، كما يسمعها كل العشاق، وفي مقدمتهم "مولانا جلال الدين الرومي"، بل يسمع أنواع الشكر للمنعم الرحمن، وأنواع الحمد تقدم للحي القيوم.."[١٦].

١٣- الهاوية والسقوط

الانحلال الذي دبّ في روح الأمّة العثمانية، وعاث فسادا في عقلها آخر أيام حياتها قد وأد ذاكرتها الإيمانية، ومسح مرآة وجدانها من كثير من صور الأمجاد التي حفل بها تاريخها الإيماني؛ بينما توقف زمنها العتيد صامتا حزينا في انتظار عودة الذاكرة المؤْودة إلى سابق عهدها،

[١٦] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥.

غير أن معاول الهدم التي كانت تهدم في كيانها منذ أجيال بصمت كتوم كادت تجهز على البقية الباقية من هذه الذاكرة، وأدّى ذلك إلى زوال التأثير الإيماني على مجمل حياة الأمّة الأدبية والفكرية مما دفع بحياتها الثقافية إلى تيه من اليباب والخواء، والرأس الذي كان يوما ما يناطح سماء العظمة الإنسانية بدأ يتطامن ويطاطئ حتى لامس غبار الأقدام، وشحنة العظمة التي كان توهجها يضيئ الخافقين عادت رمادا، ومن ماضيها السحيق ما قبل الإيمان انبثقت أفكار تريد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والعودة بها إلى وثنيات ما قبل إسلامها.

١٤- النجم الهادي

وعند ما أقفرت سماء تركيا من أي نجم أدبي هاد، يذكرها بإيمانها، ويعيد إلى قلبها ما سلب من نوره، وإلى عقلها ما سلب من رصانته؛ سطَع نجم النورسي فجأة، وأضاء الآفاق، وأشعل قناديل الآمال، وأنار طريق الخلاص، فحمل روحه العظيم آلام عصر كامل من الانكسارات، ناذرا قلمه من أجل الخلاص الروحي الذي لا خلاص للأمّة مما تردّت فيه من خذلان سواه، فبدأ ذهنه الحر الأصيل يتصاعد كاللهب بروعة إلى آفاق عالية من أدب الكلمة المُذَكِّرَةِ بجذور الأمّة الإيمانية، والساعية لانتشالها من هاوية الانسحاق الشائن الذي دفع بها خارج تاريخها المؤثل.

وكان لا بد لهذا التوجه الأدبي النورسي الجديد أن يجافي التوجه الأدبي الغربي الذي صار له مكان الصدارة في أقلام الأدباء والمفكرين "الأتراك الجدد"، والذي يعود بجذوره الأولى الموغلة في القدم إلى كل من "أثينا" و"روما" الوثنيتين، وهو أدب -كما يقول النورسي- أسطوري

ملحمي روائي تمرّدي استعلائي اغتصابي، له رأي في الكون والإنسان والحياة على طرفي نقيض مع أدب الإيمان.

وعلى الرغم من أن الإنسان اليوم يكاد ينسى أنه كان في يوم من الأيام -وعبر التطور التاريخي من مرحلة إلى أخرى- يخرج إلى البراري ليصطاد فرائسه، ويغتصبها اغتصابا من يد الطبيعة ليأكل ويحفظ حياته من الهلاك، إلا أن "الغرب" لا ينفك يذكر اليوم بتلك الحقبة المتوحشة من تاريخ الإنسان، ويعود ليربي في الإنسان ذلك الشعور الحيواني المتوحش، ويغريه باغتصاب اللقمة من أفواه الجائعين وسرقة ما تحتويه أرضهم من كنوز كما يقول النورسي.

ثم يستمر قائلا:

> ومع ذلك "لا ينبغي أن ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة إلا أنها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها"[١٧].

١٥- الأساليب البيانية عند "النورسي"

والنورسي يمتلك قدرة فذة على استحداث أساليب متنوعة في الكتابة بتنوع الموضوعات التي يتناولها من حيث الأهمية والعمق؛ فهو ذو قلم مطواع يمتاح من خصوبة بيانية متعددة الجوانب والصور والأشكال.. فأسلوبه بشكل عام يتراوح بين "السهل الممْتنع" والقوي الصعب، والغامض بعض الغموض، والغامض شديد الغموض.. وأساليبه جميعها أساليب تحفيزية تحريكية تنشيطية للأذهان والأرواح، وذلك لأن أفكاره

---

[١٧] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٨٥٨.

بالأساس ليست تقليدية تلقينية نمطية، بل هي استكشافية اختراعية تحتاج من القارئ إلى نوع من أنواع السياحات الفكرية، والكدود الذهنية شأن المستكشفين والمخترعين الرواد.

وبهذا الخصوص يقول الأستاذ محمد عبد الله الحسّو في مخطوطه عن الأسلوب الأدبي في رسائل النور الكلام الآتي:

"الأستاذ سعيد النورسي شخصية عظيمة ذات جوانب متعددة، وآفاق واسعة، وأبعاد مختلفة، وأساليب البيان عنده متعددة؛ فقد تجد الأسلوب العلمي الدقيق بجانب الأسلوب الأدبي الرقيق الرشيق، وتجد في مؤلفاته القيمة الأسلوب الواضح البسيط السهل الجميل، كما تجد في موضوعات أخرى الأسلوب الغامض الذي يحتاج إلى تفكير وتأمل وكد الذهن لمعرفة ما يقصده الكاتب.

والغموض عند الأستاذ النورسي يتفاوت بين الغموض البسيط والغموض الشديد، وفي جميع أنماط أساليبه يحس القارئ بجذب واشتداد إلى ما يقوله المؤلف، ويحس بجمال وجلال وصدقٍ وإخلاصٍ وحماسةٍ وإيمانٍ عميقٍ من المؤلف بما يقوله ويقدمه من أفكار حول قضية "الحقائق الإيمانية" التي تدور "رسائل النور" العظيمة عليها، وحول الموضوعات الأخرى المختلفة"[١٨].

جاء في "المثنوي العربي النوري":

"(اعْلم) أيها الناظر! إني أسمع من الناس شكاية عن الغموض في آثاري، فاستمع مني ولا تعجل لعتابي لأجل الإشكالات،

[١٨] الأسلوب الأدبي في رسائل النور (مخطوط)، محمد عبد الله الحسّو.

إذ مخاطبي نفسي الدسّاسة، وهي تفهم بسرعة أجوبة أسئلتها المخطئة ولو بالرمز"[١٩].

"لا تطلب في آثاري انتظامًا وانسجامًا ووضوحًا لأنها (أي تلك الآثار) تقيد وتلخص مشاهداتي في تحولات غريبة ومجريات نفسية مختلفة مع أمور أخرى"[٢٠].

ثم قال رحمه الله:

"لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغَتْه الأفكار والعقول، كلا! بل فيض أُفيض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الحكيم.. ولا تظنّه أيضًا سيالاً تذوّقه القلوب وهو يزول، كلا! بل أنوار عن حقائق ثابتة انعكست على عقل عليل وقلب مريض... إن ما يصادفك في المسائل من صورة البرهان والاستدلال ليس برهانًا حتى يقال "فيه نظر!"، بل مبادئ حدسية قيّدت وعقدت واستحفظت بأنوار اليقين المفاضة من القرآن الكريم"[٢١].

فهذا الرجل الملهم له أحواله وتجاربه الروحية وأحاسيسه، وله أيضا صراعاته النفسية، فهو في بحر مواج هدار وقد يأتي بآيات ساطعة

---

[١٩] المثنوي العربي النوري، للنورسي، ص:٣١٢. لعله يقصد أنه يوجه كلامه إلى نفسه وهي تفهم مثل هذا الأسلوب ولو بالرمز، فكأنه حديث مع النفس، أو ربما يقصد أن الغموض ناشئ من أنه يتحدث عن تجارب روحية وأحوال نفسية غاية في العمق، فالكلام ليس كلاما اعتياديا بل كلام قلب يحيا في أمواج من الأحاسيس والإشعاعات، وبحر من الأفكار والتصورات والمعاني المختلفة القوية.

[٢٠] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣١٦.

[٢١] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣١٦.

كالشمس وقد يغطي الغموض -أحيانا- بعض جوانب الشمس، شمس الإيحاءات والأحاسيس الباطنية العقلية والروحية والوجدانية:

"إن قمة الروعة في الأسلوب الأدبي تتمثل في أخصب وأعمق كتب النورسي، وهو "المثنوي العربي النوري".. وحقا إن هذا الكتاب تحفة أدبية ودينية رائعة من روائع عبقرية النورسي، وإن فيه من الصور البيانية والإبداعات الفنّية، والذوق الأدبي، وروائع التشبيه والتمثيل والخيال والشاعرية وفنون الاستعارة والكناية والرموز والتلويحات ومشارق نور البلاغة والبيان وجزالة الألفاظ وعمق الفكر وشموخ المقاصد والأهداف... أقول: إن في هذا الكتاب من هذه الأشياء ما يجعله من القمم الأدبية وعلى مستوى واحد من كتاب "المثنوي" لجلال الدين الرومي رحمه الله، وربما رجح عليه من بعض الجوانب"[٢٢].

ويمضي الأستاذ الحسو في كلامه مستشهدًا بالدكتور "محسن عبد الحميد" حيث يقول في مقدمة كتاب "الآية الكبرى":

"إن الأستاذ النورسي وضح مذهبية الإسلام الشاملة في الكون والحياة والإنسان بمنطق صارم وشاعرية فذة وقلم سيال"[٢٣].

ثم قال:

"ويتقدم النورسي في هدوء ذكي ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة... كل ذلك بأسلوب شاعري خصب، ومعرفة تامة بما كان يجري في عصره من تطور في العلوم، ومن خيال خصب

---

[٢٢] الأسلوب الأدبي في رسائل النور (مخطوط)، محمد عبد الله الحسّو.

[٢٣] مقدمة "الآية الكبرى للنورسي"، محسن عبد الحميد، ص:٥.

obeikandi.com

ولفتات منطقية بارعة، وألق قلبي يقظ، وسريان عجيب في باطن الوجود بل نفوذ إلى أعماق ذلك الباطن"[٢٤].

ونستطيع أن نستنتج من أقوال الدكتور محسن عبد الحميد أنه يعتبره كتابا أدبيا، أو كتابا دينيا بأسلوب أدبي، وشاعرية فذة، وقلم سيال، وخيال خصب.

ويمضى الحسّو فيقول:

"ومن خصائص الأسلوب الأدبي عند النورسي أنه اعتمد كثيرا على "ضرب الأمثال"، فأجاد وأبدع وأغنى "رسائل النور" حتى يمكننا أن نقول: إن "ضرب الأمثال" هو الطابع المميز لرسائل النور... ولعل النص الآتي الذي نقتبسه من كلام الأستاذ النورسي يغني عن أي تعليق آخر، فاستمع إلى ما يقوله النورسي:

"إنك يا أخي تسأل: لماذا نجد تأثيرًا غير اعتيادي فيما كتبته في "الكلمات" المستقاة من فيض القرآن الكريم، قلّما نجده في كتابات العارفين والمفسرين. فما يفعله سطرٌ واحد منها من التأثير يعادل تأثير صحيفة كاملة من غيرها، وما تحمله صحيفة واحدة من قوة التأثير يعادل تأثير كتاب كامل آخر؟

فالجواب: وهو جواب لطيف جميل، إذ لما كان الفضل في هذا التأثير يعود إلى إعجاز القرآن الكريم وليس إلى شخصي أنا، فسأقول الجواب بلا حرج:

نعم! هو كذلك على الأغلب؛ لأن الكلمات:

---

[٢٤] مقدمة "الآية الكبرى للنورسي"، محسن عبد الحميد، ص:٦.

تصديق، وليست تصورًا؛[٢٥]

وإيمانٌ، وليست تسليمًا؛[٢٦]

وتحقيق، وليست تقليدًا؛[٢٧]

وشهادة وشهود، وليست معرفة؛[٢٨]

وإذعان، وليست التزامًا؛[٢٩]

وحقيقة، وليست تصوفًا؛

وبرهان ضمن الدعوى، وليست ادعاءًا...

وحكمة هذا السر هي: أن الأسس الإيمانية كانت رصينة متينة في العصور السابقة، وكان الانقياد تامًّا كاملاً، إذ كانت توضيحات العارفين في الأمور الفرعية مقبولة، وبياناتهم كافية حتى لو لم يكن لديهم دليل. أما في الوقت الحاضر، فقد مدّت الضلالة باسم العلم يدها إلى أسس الإيمان وأركانه، فوهب لي الحكيم الرحيم ﷻ -الذي يهب لكل صاحب داء دواءه المناسب-، وأنعم عليّ سبحانه شعلةً من "ضرب الأمثال" التي هي من أسطع معجزات القرآن وأوضحها، رحمةً منه جلّ وعلا بعجزي وضعفي وفقري

---

[٢٥] التصديق: هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر. بينما التصوّر: هو إدراك المعرفة من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات. وفي المنطق: التصديق هو إدراك النسبة التامة الخبرية على وجه الإذعان. والتصور: إدراك ما عدا ذلك.

[٢٦] مأخوذة من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(الْحُجُرَات: ١٤).

[٢٧] التحقيق: إثبات المسألة بدليلها، بينما التقليد: قبول قول الغير بلا حجّة ولا دليل.

[٢٨] الشهادة: هي إخبار عن عيان؛ والشهود: هو معرفة الحق بالحق؛ أما المعرفة: فهي إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم.

[٢٩] الإذعان: عزم القلب، والعزم جزم الإرادة.

obeikandi.com

واضطراري، لأُنير بها كتاباتي التي تخص خدمة القرآن الكريم. فله الحمد والمنّة.

فبمنظار "ضرب الأمثال" قد أُظهِرَتْ الحقائق البعيدة جدًّا أنها قريبة جدًّا..

وبوحدة الموضوع في "ضرب الأمثال" قد جُمِّعَتْ أكثر المسائل تشتّتًا وتفرقًا..

وبسلّم "ضرب الأمثال" قد تُوصِل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويُسر..

ومن نافذة "ضرب الأمثال" قد حُصّل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من الشهود..

فاضطر الخيال إلى الاستسلام، وأُرغم الوهم والعقل إلى الرضوخ، بل النفس والهوى.. كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح.

حاصل الكلام:

إنه مهما يظهر من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها ليست مني، ولا مما مضغه فكري، بل هي من لمعات "ضرب الأمثال" التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيه إلا الطلب والسؤال منه تعالى، مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلاّ التضرع والتوسل إليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف.

فالداء منّي، والدواء من القرآن الكريم"[٣٠].

---

[٣٠] المكتوبات [المكتوب الثامن والعشرون]، سعيد النورسي، ص:٤٨٦-٤٨٧.

obeikandl.com

١٦- صفات الأديب الكبير

كل الصفات التي يفترض أن تتكامل في شخصية الأديب العظيم متوفرة في شخصية النورسي، فمِن هذه الصفات:

١- أن يكون الأديب الكبير ذا ثقافة واسعة ملمًّا بثقافة لغته وثقافات الأمم الأخرى.

٢- أن يكون له نظرة فلسفية شاملة تشمل الحياة والوجود والدين والدنيا، وأن يكون قادرًا بأدواته الفنية على إبراز ملامح هذه الفلسفة الشخصية أو هذه الرؤى والقناعات الفكرية إلى عالم الوجود والتأليف والشرح والتوضيح للناس.

٣- أن يحمل رسالة سامية شريفة ويقف حياته وقلمه على خدمتها.

٤- أن يملك القدرة العقلية والفكرية العالية إلى جانب خصوبة الروح والوجدان والمشاعر والإحساسات الإنسانية.

٥- أن يملك الشخصية المستقلة والعقلية المتميزة، وأن يفرض آراءه وأفكاره ومشاعره على القراء بما يملك من ثقة بنفسه، وحماس لمشاعره، وإيمان برؤاه وقيمه السامية ومكتشفاته في الكون والطبيعة والحياة.

٦- أن تكون له خصوصيات وأحوال تحدد ملامح شخصيته فلا تختلط بخصوصيات شخصية أخرى.

٧- أن تكون لديه موهبة جذب القارئ والتأثير فيه.

إن كل هذه الصفات والملامح الشخصية متوفرة في شخصية "سعيد النورسي".. ولنستمع إلى بعض أقواله عن نفسه، أو أقواله العامة، لنرى ونحس الطابع الأدبي والشخصية الأدبية المثالية التي وصلت القمّة في

عالم الأدب والفكر والروح والوجدان والدين.

١٧- العزلة والخلوة

يقول النورسي عن نفسه:

"ولكن بعد هذه الفترة ولّيتُ وجهي كليًّا عن الدنيا وقبرت "سعيد القديم" وأصبحت إنسانًا جديدًا يعيش للآخرة، فانسللت من حياة المجتمع، ونفضتُ يدي من كل ما يخصّهم؛ فاعتزلت الناس في "تلّ يوشع" في إسطنبول، ومن ثم في مغارات في جبل "وَانْ" و"بِتْلِيس".. بتُّ في مجاهدة مستديمة مع روحي ووجداني، وانفردتُ بعالمي الروحي.. أخذتني الأقدار نفيًا من مدينة إلى أخرى.. وفي هذه الأثناء تولّدت من صميم قلبي معانٍ جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم. أمليتُها على مَنْ حولي من الأشخاص.. تلك هي الرسائل التي أطلقت عليها "رسائل النور"، إنها انبعثت حقًّا من نور القرآن الكريم"[٣١].

١٨- التراب الشاعر والصديق

وبالسياق مع مقولته الشهيرة "في المألوفات خوارق المعجزات"، إذا ما دقّقنا النظر وسَبَرْنَا الغور، يلفت النورسي الانتباه إلى تراب الأرض، موطئ الأقدام؛ فمِنْ كثرة ما صحبناه وشهدناه وألفناه، لم يعد يثير انتباه أحدٍ، أما عند النورسي فهو واحدة من خوارق المعجزات الإلهية.. هذا الصامت المتكلم بألْف لسان ولسان، كلامه النبت والزهر والشجر، أسير الأشواق، وشاعر اللون والشكل والصورة.. في ألوان الورود والزهر

[٣١] الشعاعات، النورسي، ص:٥٤١.

والثمر تتوهج جمرات قلبه، وعلى وجناتها يسطع مذاب فؤاده، ورقة حسه.. صديق الإنسان ورفيقه على مدى حياته وبعد مماته.. وجوده من طينته.. وإليه يعود في خاتمة حياته.. إذا مسه الإنسان فَجَّرَ أريحيته وحرك كوامن عطاياه فوهب له كنوزه، وأعانه على بناء حضارته، وإقامة صروح مدنيته، فيا له من صديق صدوق، ورفيق حنون.. وإليك الآن ما يقوله النورسي في التراب:

"اعلم: أن مما أفيض على قلبي من فيض القرآن الكريم؛ كثرة ذكره "إحياء الأرض" ولفت أنظار البشر إلى "التراب".. إن الأرض قلب العالم، والتراب قلب الأرض، وإن أقرب "السبل" إلى المقصود يذهب في التراب من باب التواضع والمحويّة والفناء، بل هو أقرب من أعلى السماوات إلى خالق السماوات ﷻ؛ إذ لا يُرى في الكائنات شيء يساوي التراب في تجلّي "الربوبية" عليه، وفعالية القدرة فيه، وظهور الخلاقية منه، والمظهرية لجلوات اسمَي "الحيّ القيّوم".

وهكذا.. فكما أن "عرش الرحمن" على الماء، كذلك إن "عرش الحياة والأحياء" على التراب؛ والتراب أجمع المرايا وأتمّها، إذ مرآة الكثيف كلما كانت ألطف وأشفّ تُريك صورة الكثيف أوضح وأظهر وأتمّ.. لكن مرآة اللطيف النوراني كلما كانت أكثف، كان التجلي عليها بالأسماء أتم.. ألا ترى الهواء لا يأخذ من فيض الشمس إلا ضياءً ضعيفًا، والماء وإن أراك الشمس بضيائها لكنه لا يقدر على فصل ألوانه، مع أن التراب يريك بأزاهيره مفصَّل كلّ ما اندمج في ضيائها من الألوان السبعة ومركّباتها، مع أن

هذه الشمس قطرة ملتمعة كثيفة بالنسبة إلى نور شمس الأزل. وتَزَيُّنُ التراب وَتَبَرُّجُهُ في الربيع بما لا يُحدّ ولا يُعدّ من لطيفات الأزاهير، وجميلات الحيوانات المنادية على كمال ربوبيته شاهد مشهود. فسبحان من يتعرف إلينا بلطيف صنعه، ويعرّف الخلائق قدرته بعجائب تصرفه في التراب..

ومما يرمز إلى هذا السرّ الحديث الشريف: "أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد"[٣٢] فإذا كان هذا هكذا، فلا تتوحش من التراب وذهابك فيه، ولا تندهش من القبر وسكونك فيه"[٣٣].

١٩- مشاهد من حديقة الأرض

وإذا كان النورسي يرى في "تراب الأرض" عالمًا مَوّاجًا بالحركة، متفجرًا بالإمكانات والقدرات، منطويًا على الكثير من أسرار الخلق والخلقة، فهو يرى كذلك أن الأرض نفسها حديقة إلهيّة شاسعة الأرجاء، ولوحة فنّية متناغمة الألوان، من أين نظرت إليها طالعتك بما يَشْدَهُ العين، ويهزّ أحاسيس الجمال في نفسك، ومن أيّة زاوية جئتها استقْبَلَتْك بدفق هائل من صور الحسن التي تعكسها مرايا الجمال الكوني على صفحة الخيال البشري، طاهرةً طهارة الطفولة العذبة ترفُّ بها أجنحة السماء.

والنورسي يعبّر عن هذه المعاني في القطعة الآتية التي أشبه ما تكون بالشعر الحرّ، حيث يقول:

---

[٣٢] تكملة الحديث: "فأَكْثِروا الدعاء".. (أخرجه مسلم برقم: ٤٨٢؛ وأبو داود، برقم: ٨٧٥؛ والنسائي، ٢/٢٢٦).

[٣٣] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٤١٠.

"سبحان من جعل حديقة أرضه:
مَشْهَرَ صنعته،
محشر فطرته،
مظهر قدرته،
مدار حكمته،
مزهر رحمته،
مزرع جنته،
ممر مخلوقاته،
مسيل موجوداته،
معرض مصنوعاته...

تَبَسَّمُ الأزهار من زينة الأثمار،
تسجُّعُ الأطيار من نسمة الأسحار،
تَهَزّجُ الأمطار على خدود الأزهار،
تَرَحُّمُ الوالدات على الأطفال الصغار...

تعرُّف ودود،
تَوَدُّدُ رحمن،
تَحُنُّنُ مَنَّان،

للجنِّ والإنسان،
والروحِ والحيوان،
والملكِ والجان..

obeikandl.com

البذور والأثمار،
والحبوب والأزهار..
معجزات الحكمة،
خوارق الصنعة،
هدايا الرحمة،
براهين الوحدة،
شواهد لطفه في دار الآخرة...

الشمس كالبذرة،
والنجم كالزهرة،
والأرض كالحبّة،
لا تثقل عليه بالخلق والتدبير،
والصنع والتصوير..
فالبذور والأثمار مرايا الوحدة،
في أقطار الكثرة،
إشارات القدر،
رموزات القدرة،
تلك الكثرة من منبع الوحدة،
ثم إلى الوحدة تنتهي،
والإنسان هو المقصود الأظهر،
من خلق هذا الشجر..

obeikandl.com

فالبشر ثمرٌ لهذه الكائنات،
وهو المقصود الأظهر،
لخالق الموجودات..
فالإنسان الأصغر،
هو المدار الأظهر،
للنشر والمحشر..."[٣٤].

٢٠- الإنسان الكامل

يعلو الجمال مع علوّ أخيلة الروح، وَيَرِفُّ مع أشواق القلب، وتسمو الذات البشرية بما تناله من أذواقه، وتحوزه من معانيه.. وإذا ما سرى روح الجمال إلى باطن الفكر ارتفع قدرُه، وتقدَّس سرّه، وَشَرُفَتْ مقاصده، وَسَمَتْ غاياته، وجادتْ قرائحه، وانجذبت إليه الموجودات، وحفلت به الكائنات؛ واكتسب صفات "الإنسان الكامل" كما هو قائم في خيال الكون، وكما حَلُمَتْ به البشرية، وَبَشَّرَتْ به الأديان.. فتنزل عليه -عند ذاك- ألطاف ربّه، ورحمات خالقه.. ويصير جديرًا بأن تُخلق من أجله الأفلاك، وتتزين لناظريه الأرض، وتُزفُّ إليه الطبيعة. ولعظم المهمات الملقاة على عاتقه، زوّده خالقه بالقدرات والطاقات، وأطلق لقواه العنان، ولم يحدد لها حدًّا تقف عنده، ولم يضع من دونها حاجزًا يحجزها عن السريان حيث تشاء، وكأنه -تعالى- يقول له:

أيها الإنسان يا مَنْ خلقتُه لنفسي، وصنعتُه مرآةً لأنوار تجلّياتي..! انطلقْ ولا تقف، امْضِ حيث تمضي بك قواك، وسِرْ حيث تسير بك

[٣٤] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:١٤٣.

obeikandl.com

أفكارك ومشاعرك.. استجمع كلّ لطائفك، واحشد كل طاقاتك، ولملم ما تشتت من نفسك وعقلك، وافتح منافذ حواسك، لتعرف وتذوق، وتتلهف وتشتاق، ثم لتعكس مرآة روحك لمعات من الجمال الأقدس الذي كل جمال إِنْ هو إلاّ قبسة من قبساته، وقطرة من بحار أنواره.

وحول هذه المعاني يدور أدب النورسي في القطعة الآتية:

"اعلم! أنه يلزم لمثل هذه التزيينات والكمالات والمناظر الحسنة وحشمة الربوبية وسلطنة الألوهية، من مشاهد لها، ومتنزه بها، ومتحير فيها، ومتفكر ينظر إلى أطرافها ومحاسنها، فينتقل منها إلى جلالة صانعها ومالكها واقتداره وكماله.

نعم، إن الإنسان مع جهالاته وظلماته له استعداد جامع كأنه أنموذج مجموع العالم، وأُودع فيه أمانةٌ يفهم بها الكنز المخفي ويفتحه. ولم يُحدد قواه، بل أُرسلت مطلقة فيكون له نوع شعور كليّ بشعشعة كمال حشمة جلال سرادق جمال عظمة ألوهية سلطان الأزل. وكما أن الحُسن يستلزم نظر العشق، كذلك ربوبية النقاش الأزلي تقتضي وجود نظر الإنسان بالتقدير والحيرة والتحسين والتفكر، وتستلزم أيضًا بقاء ذلك المتفكر المتحير إلى الأبد، ورفاقته لما تحير فيه في طريق أبد الآباد.

نعم، إن مَن زيّن وجوه الأزاهير كما أوجد لها عشّاقًا مستحسنين من أنواع الذبابات والعصافير، وزيّن خدود الملاح فأوجد لها أنظار المشتاقين الوالهين.. كذلك من زين وجه العالم بهذه الزينة الجاذبة، ونوّر عيونه بهذه المصابيح المتبسّمة، وحسّنه بأنواع المحاسن المتلألئة، وأدمج في كل نقش بكمال الوضوح تودّدًا

وتعرفًا وتحببًا، لا يخليه من أنظار مشتاقين متحيرين متفكرين منجذبين عارفين بقيمة كل؛ فلجامعية الإنسان صار الإنسان الكامل سبب خلق الأفلاك علة غائية له وثمرة له.."[٣٥].

٢١- "النورسي" ناقدًا

إن عظمة الفكرة وصدقها وأصالتها، هي التي تعطي الكلمات والألفاظ التي تحملها شيئًا من خصائص عظمتها وقوّتها، فيصبح اللفظ -مطيّة الفكر- قويًّا وعظيمًا بعظمة ما يحمل من أفكار يراد منه التعبير عنها مهما كانت درجة هذا اللفظ متواضعة في رأي البلاغة والجزالة؛ ويبقى الكلام ضعيفًا وهشًّا عندما تكون الفكرة بحد ذاتها ضعيفة وهشة، مهما حاول صاحبها أن يزين كلامه ويموّهه في عيون قرّائه.

والاهتمام باللفظ قبل المعنى، وبالشكل قبل المحتوى، انتكاسة أدبية وحضارية تعتري الأمّة في حال ضعفها، وعندما يصاب عقلها بالوهن والهزال.. وقد مرّت بهذه الأمّة هذه الانتكاسة في فترات سود من تاريخها الأدبي والفكري، ومازالت -مع الأسف الشديد- بقايا هذه الظاهرة المرضية تطلّ برأسها بين الحين والآخر من أقلام البعض من أدباء هذه الأمّة على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها ويبذلها النقاد لإنقاذ الأقلام من آثار هذا النهج المرضي.

والنورسي أديب أفكار ومعان، وصاحب رسالة إيمانية يريد أداءها إلى قرّائه من أقصر الطرق، مقتصدًا بالكلمات ما وسعه ذلك؛ فأسلوبه أسلوب برْقي تلغرافي -إذا صحّ التعبير- يعنى بالفكرة ووصولها إلى

[٣٥] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣١١.

القارئ بشكل عفوي دون زخارف كلامية، أو طبول لفظية فارغة.

وفي تحليله لأسباب رواج أدب الألفاظ في بعض فترات تاريخ الأمة يقول النورسي:

"يخبرنا التاريخ بأسف بالغ أنه: لما انجذب الأعاجم بجاذبة سلطنة العرب فسدت بالاختلاط ملكة الكلام المضري، التي هي أساس بلاغة القرآن؛ إذ لما تعاطى الأعاجم والدخلاء صنعة البلاغة العربية، حولوا الذوق البلاغي من مجراه الطبيعي للفكر، وهو نظم المعاني إلى صنعة اللفظ، وذلك إن المجرى الطبيعي لأنهار الأفكار والمشاعر والأحاسيس إنما هو نظم المعاني، ونظم المعاني هو الذي يُشَيِّدُ بقوانين المنطق. وأسلوب المنطق متوجه إلى الحقائق المتسلسلة... والفكر الواصل إلى الحقائق هو الذي ينفذ في دقائق الماهيات ونسبها... هي الروابط للنظام الأكمل في العالم، والنظام الأكمل هو المندمج فيه الحسن المجرد الذي هو منبع كل حسن. وتلك الجنة المزهرة ودقائق الماهيات ونسبها هي التي تجول فيها بلابل عاشقة للأزاهير المسمّاة بالشعراء والبلغاء وعشاق الفطرة... ونغمات تلك البلابل يمدها صدى روحاني هو نظم المعاني"[٣٦].

ويمضي قائلا:

"ولكن لما حاول الدخلاء والأعاجم الدخول في صفوف الأدباء فلت الأمر، لأن مزاج الأمة مثلما أنه منشأ أحاسيسها

---

[٣٦] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:٩٧.

ومشاعرها، فإن لسانها القومي يعبر عن تلك المشاعر ويعكس تلك الأحاسيس. وحيث أن أمزجة الأمة مختلفة، فاستعداد البلاغة في ألسنتها متفاوت أيضًا، ولا سيما اللغة العربية الفصحى المبنية على قواعد النحو. وبناءا على هذا فإن نظم اللفظ الذي هو أرض قاحلة لا تصلح لأن تكون مسيلاً لجريان الأفكار، ومنبتًا لأزاهير البلاغة، وقد اعترض مجرى البلاغة الطبيعي وهو نظم المعنى فَشَوَّشَ البلاغة"[٣٧].

ثم يمضى قائلا:

"فداروا -أي أولئك الأدباء- حيث دار اللفظ بعد تصور المعاني، بل حتى غلب اللفظ المعنى وسخره لنفسه، فاتسعت المسافة بين طبيعة البلاغة، وهي كون اللفظ خادما للمعنى، وصنعة العاشقين للفظ. فإن شئت فادخل في "مقامات الحريري" فإنه مع جلالة قدرة في الأدب فقد استهواه حب اللفظ وبذلك أخلّ بأدبه الرفيع، فأصبح قدوة للمغرمين باللفظ، حتى خصص "الجرجاني" -ذلك العملاق- ثلث كتابيه "دلائل الأعجاز" و"أسرار البلاغة" دواءً لعلاج هذا الداء"[٣٨].

نعم إن حب اللفظ داء، ولكن لا يُعرف أنه داء! وينبّه فيقول:

"كما أن حب اللفظ مرَض، كذلك حب "التصوير الفني" وحبُّ "الأسلوب"، وحب "التشبيه"، وحب "الخيال"، وحب "القافية"، مرض مثله، بل ستكون هذه الأمراض بالإفراط أمراضًا مزمنة في

[٣٧] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:٩٨.

[٣٨] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:٩٨.

المستقبل، كما تبدو البوادر من الآن حتى يضحّى بالمعنى في سبيل ذلك الحب"[٣٩].

ويستطرد فيقول:

"نعم...! "اللفظ" يُزَيِّنُ، ولكن إذا اقتضته طبيعة المعنى وحاجته.. و"صورة المعنى" تُعَظَّمُ وتُعْطَى لها مهابة، ولكن إذا أَذِنَ المعنى.. و"الأسلوب" يُنَوَّرُ ويُلَمَّعُ، ولكن إذا ساعده استعداد المقصود.. و"التشبيهُ" يُلَطَّفُ وَيُجَمَّلُ، ولكن إذا تأسس على علاقة المقصود وارتضى به المطلوب.. و"الخيال" يُنَشَّطُ ويُسَيَّحُ، ولكن إذا لم يؤلم الحقيقة، ولم يثقل عليها، وأن يكون مثالا للحقيقة، متسنبلاً عليها"[٤٠].

ويقول عن "الخيال":

"لا بد في كل خيال من نواة من حقيقة"[٤١].

ويقول عن "الأسلوب":

"فالأسلوب بهذا قالب الكلام، كما هو معدن جماله ومصنع حلله الفاخرة"[٤٢].

ويقول كذلك:

"فإذا أمعنت النظر في أسلوب الكلام -الكلام الطبيعي الفطري- ترى المتكلم في مرآة الأسلوب، حتى كأن نَفْسَهُ في

---

[٣٩] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:٩٨.

[٤٠] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:٩٩.

[٤١] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٠٠.

[٤٢] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٠٠.

openkanal.com

أَنْفَاسِهِ بذاتِه، وماهيتُه في نفثاته، وصَنْعَتُهُ ومِزَاجُهُ ممتزجان في كلامه"(٤٣).

ويقول كذلك:

"إن قوة الكلام وقدرته: أن تتجاوب قيوده، وتتعاون كيفيّاتُهُ، وَيَمُدُّ كُلٌّ بِقَدَرِهِ مشيرا إلى الغرض الأصلي، ويضع إصبعه على المقصد، فيكون مثالا ومصدرا لدستور:

عباراتنا شتى وحسْنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

وكأنَّ القيود مسيلٌ ووديانٌ، والمقاصدُ حوضٌ في وَسَطِها تستمدُّ منه.

حاصل الكلام: يلزم التجاوب والتعاون والاستمداد لئلا تتشوش صورة الغرض المرتسمة على شبكة الذهن والملتقطة بنظر العقل".

ويقول:

"ينشأ التناسب ويتولد الحسن ويلمع الجمال بنشوء الانتظام من هذه النقطة.

فتأمل في كلام رب العزة ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾(الأَنْبِيَاء:٦٤) المسوقة للتهويل، وتخويف الإنسان، وتعريفه بعجزه وضعفه. فبناءً على القاعدة البيانية: "ينعكس الضد من الضد" ترى الآية الكريمة تبيّن تأثير القليل من العذاب بقصد التهويل والتخويف، فكل طرف من الكلام يمد المقصد -وهو

(٤٣) صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٠٠.

قليل- عن جهته وذلك بـ:

التشكيك والتخفيف في لفظ ﴿إِنْ﴾،

والمس وحده دون الإصابة في ﴿مَسَّتْ﴾،

والتقليل والتحقير في مادة ﴿نَفْحَةٌ﴾ وصيغتها وتنكيرها،

والتبعيض في ﴿مِنْ﴾،

والتهوين في ﴿عَذَابِ﴾ بدلاً من "نكال"،

وإيماء الرحمة في ﴿رَبِّكَ﴾..

كل ذلك يهول العذاب ويعظمه بإراءة القليل، إذ إن كان قَلِيلُهُ هكذا، فكيف بعظيمه؟!.. نسأل الله العافية!"[٤٤].

وفي مكان آخر يقول:

"أي إن البليغ يتمثل أشعة الحقائق المنعكسة من الخارج كالمرآة وكأنه يقلد الخلقة، ويحاكي الطبيعة بصنعته الخيالية وبنقش كلامه"[٤٥].

ويقول عن فنّ الكتابة:

"وينبغي أيضا مساوقة الطبيعة والتتلمذ عليها بصنعة المتكلم الخيالية، كي تنعكس قوانينها في صنعته"[٤٦]

ويقول عن قلب الأديب ولسانه:

"وكثيرًا ما لا يفهم اللسان فهمًا تامًّا لغةَ القلب، لاسيما إن كان القلب يئن في غور المسائل وفي أعماق بعيدة كغيابة الجب، فلا

---

[٤٤] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٢١-١٢٢.

[٤٥] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٣١.

[٤٦] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٣٦.

obeikandl.com

يسمعه اللسان، وكيف يترجمه؟!"[٤٧].

نخلص مما تقدم من آراء النورسي النقدية في الأدب والأدباء إلى أن العمل الأدبي هو عمل فكري مُهَنْدَسٌ يستوي على قاعدة، صلبة، حجرُ الأساس فيه معرفةُ المقصودِ من العمل كُلِّهِ لتدور عليه وحوله ما يُشيَّدُ من هياكل بنائية تسهم في إقامتها روح الأديب، ووجدانيات الكلمات، والألفاظ المستخدمة في عملية التشييد بمدلولاتها الوجدانية والروحية والفكرية، مستفيدا مما كان قد تعلّمَهُ من الطبيعة والحياة، ومن ملامسته لروح المنطق في عملهما في الهدم والبناء، فيجعله مسطرا يقيس عليه نسب المدلول الكلامي بين الكلمة والكلمة، والفكرة والفكرة، وبذلك يأتي العمل الأدبي متكاملا مقنعا مؤثرا في المتلقي، وهو المطلوب من كل عمل أدبي.

٢٢- العالمية في أدب "النورسي"

إن الأعمال الأدبية الكبرى التي نالت الخلود على مرّ الدهور والعصور، هي تلك الأعمال التي تعالج قضايا الإنسان ذات المساس الصميمي بقلبه وروحه، وبمصيره ومآله.. فهي سرعان ما يعرفها العالم وتتلقفها الشعوب، وتقرأها بشغف، وتجد أصداء لها في روحها وجوهر وجدانها.

فالأعمال الأدبية حتى الأسطورية منها تَحْظَى باهتمام بالـغ من مختلف الشعوب إذا كانت تدور حول مكتشفات الإنسان ومغامراته من أجل نيل الخلود، هذا الحلم الذي راود البشرية منذ طفولتها وحتى اليوم.

وعلى الرغم من أن "رسائل النور" تُرْجِمَتْ إلى بعض لغات العالم

---

[٤٧] صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:١٤١

واستُقْبِلَتْ هناك بحفاوة وتقدير كبيرين، باعتبارها رسائل "إيمانية" معنية بالدرجة الأولى بالجوانب الإيمانية لدى الإنسان وهي لا تخلو من لمحات أدبية وفنّية بين سطورها وأفكارها، إلا أن كتابه الأدبي الأعظم وهو "المثنوي العربي النوري" ما زال مجهولا ككتاب أدبي فريد يمكن أن يشق طريقه بجدارة إلى العالمية التي حازها من قبله "مثنوي الرومي" إذا ما حظي بالترجمة المتْقنة إلى إحدى لغات العالم المعتبرة.

فهذا الكتاب يعبّر عن أحلام القلب البشري في الخلود، ويُرَنِّمُ شجاه، ويُنْشِدُ وَجْدَهُ، ويُفْصِحُ عن آلامِهِ وآماله وحنينه إلى عالم مصنوع من الجمال والحق والعدل، لذا فهو يَمُتُّ بصلةٍ إلى كل قلبٍ، ويضرب بِعِرْقٍ نابضٍ في جذر كل روح.

وحتى الأرواح الحبيسة في سجون سحيقة من التردي يمكنها أن تجد في هذا الكتاب مفاتيح الانطلاق مع أجنحة الخيال إلى حيث تلتقي حقيقتَها السامية الآتية من عالم "الأمر الإلهي" متجاوزة بذلك مفاوز الفناء التي تعم الكرة الأرضية. ومتعاليةً فوق الآفلات الفانيات من رموز الحياة والتي تئن تحت مطارق البلى ومعاول العدم، بينما يَظَلُّ سمع الأرض تَصُكُّهُ هتافاتُ الأرواح في الأعالي مع روح النورسي مرددة مع إبراهيم عليه السلام: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(الأنعام:٧٦).

إن سنا الإشراق، ولمعة الاحتراق المنبعثة من صفحات هذا الكتاب تذيب أية مغاليق وأقفال على القلب والفكر والروح.. فكما تجد فيه الأرواح محركات منطلقاتها، فكذلك الأفكار تجد فيه منطلقات مجنَّحة غير نمطية ولا تقليدية بل ابتكاريه انبعاثية مثيرة للتفكير العميق والأصيل.

ولا يعدم القارئ تفسيرا للغز الكون والحياة، ومعرفة الحكمة من

خلقهما، والمغزى من وجود الإنسان في هذه الحياة وما ينتظره في الآخرة. وإنه لينشئ في القارئ حسًّا جماليًّا وشعورًا مرهفًا يسمو بأذواقه، ويفتح منافذ الإدراك فيه ليدرك عن كثب أن الجمال هو جوهر الأرض، وأن ما يتفتّق عنه التراب من روائع الأزهار والأوراد بألوانها وأشذائها وعجائب حسنها آية ذلك الجمال، وإشارة إليه. وهو لا ينفك يُقَدِّمُ العزاء والمواساة لصاحب الرغبات المحبطة والتي تشكل أكثر أوجاعه آلامًا، وَيُقَدِّم له تفسيرًا مقْنعًا يَجْعَلُهُ يرى المحنَ منحًا، والإحباطاتِ إرهاصاتٍ لنجاحاتٍ قادمةٍ، وإنه ليغسلُ نفسَ الإنسان من أوجاعِ الألفة والرتابة والملل، ويضعه من دون هذه الحواجز وجهًا لوجه مع الموجودات يحاورها وتحاوره، فتبعث فيه حيوية إيجابية نشيطة تجعله أكثر استمتاعًا بالحياة، وأكثر تفهمًا لها وإدراكًا لمعانيها الإلهية.

وتعبيرًا عن أشواقه إلى الخلود، وإشفاقه من الزوال يصرخ النورسي هاتفًا في حزن أليم:

"لا أريد... مَنْ كان زائلاً لا أريد،
أنا فانٍ... مَنْ كان فانيًا لا أريد،
أنا عاجزٌ... مَنْ كانَ عاجزًا لا أريد،
سَلَّمْتُ روحي للرّحمن، سواه لا أريد...
بل أُريد،
حبيبًا باقيًا أريد،
أنا ذَرَّةٌ... شمسًا سرمدًا أريد،
أنا لا شيءَ ومِنْ غيرِ شيءٍ،
ولكني الموجوداتِ كُلَّها أُريد".

* * *

لا تدعوني إلى الدنيا، جئتها وشاهدتُ الفساد؛
إذ الغفلةُ حجبتْ أنوارَ الحق.
رأيتُ الأشياءَ والدنيا أعداء ضارين.
ذُقْتُ اللذائذَ، ولكن،
وَجَدْتُ الألمَ في الزوال.
أما الوجودُ فقد لَبِسْتُهُ.
آه... لا تَسَلْ كَمْ عانيتُ من الألم في العدم.
وإن قلتَ الحياة،
فقد رأيتُها عذابًا في عذاب.
نعم، لما استتر نور الحق عنّي،
ورأيت البقاء بلاء،
والكمالَ هباء،
والعمر ذهب أدراج الرياح...
نعم!
بدونه، انقلبت العلوم أوهامًا،
وأصبحت الحِكَمُ أسقامًا،
والأنوارُ ظلماتٍ،
والأحياءُ مواتًا،
والأشياءُ أعداءً...
ولمستُ الضُرَّ في كل شيءٍ،
والآمالُ انقلبت آلامًا،

obeikandl.com

والوجودُ هو العدم بعينه،
والوصالُ زوالاً،
والألم يعصرني مما لا بقاء فيه...
نعم... إن لم تجد الله،
فالأشياء كلّها تعاديك،
أذى في أذى.
بل هو عين الأذى..
وإن وجدتَ اللهَ،
فلا بد أن تجده في ترك الأشياء..
فقد رأيت بذلك النور: الجنة في الدنيا،
والأموات كلهم أصبحوا أحياء،
والأصوات كلها أذكار وتسابيح،
والأشياء كلها مؤنسة،
واللذائذ في الآلام نفسها،
والحياةَ أصبحتْ مرآة تعكسُ أنوارَ الحق...
والبقاءَ رأيتُهُ في الفناء،
والذراتِ ألسنةً ذاكرة،
يقطر من ألسنتها ويتفجر من عيونها شَهْدُ شَهَادَةِ الحق:[٤٨]

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه واحد

[٤٨] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٢٨٩.

obeikandl.com

٢٣- الإنسان الخارق

فكر حيّ لا يموت.. وروح ثاقب متوهج لا ينطفئ.. وقلب بصير صادق الرؤية.. شهد سجود العالم بين يدي الله.. وسمع تسابيح الكائنات والموجودات في الأرض والسماوات..

من كفكف دَمْعَ الإنسانية الباكية على نفسها غيره..

مَنْ مَسحَ قلبَ الإنسانِ من آلام الزيغ والضلال سواه..

مَنْ خاضَ بحارَ الجمالِ الإلهي وأخذ الإنسان إليه معه..

مَنْ وَهَبَتْهُ الكائناتُ نَفْسَها، وَمَنَحَتْهُ حقَّ الكلام عنها وأوكلتهُ برفعِ تسابيحها إلى خالقه..

مَنْ لمس قلبَ الوجودِ بأنامل الودِّ والمحبَّةِ..

مَنْ نَشَرَ في أحشاءِ الكونِ الأمْنَ والسلامَ..

مَنْ عَرَّفَ الإنسانَ بنفسهِ، وحلّ لُغْزَ خلقهِ..

مَنْ رَفَعَ الأرضَ إلى السماءِ وحَمَلَ أمانةَ الارتقاء بالإنسانِ إلى ما فوقَ الكونِ وتحتَ سِدْرَةِ المنتهى..

من صيَّر ليلَ البشرِ نهارًا، وشتاءَهُ ربيعًا..

مَنْ حوّل يُتْمَ الكونِ وبكاءَهُ إلى عيد بهيج..

من أحيا مَوَاتَ الروح، وغرسَ في القلبِ الخلودَ..

من ارتقى فوق الزمانِ والمكانِ، وعلا فوق أطباق العقول حتى وقف في برزخ بين الإمكانِ والوجوب..

من صار شمسًا للكون، وعينا للوجود، ولسانًا للخلائق، ودلّالاً لمحاسن سلطنة الربوبية..

من صار مثالاً للرحمة الربانية، وتمثالاً للمحبّة الرحمانية، وشرفًا للحقيقة الإنسانية؟!

مَنْ غيرُ محمدٍ ﷺ كانَ كُلُّ ذلكَ وفوقَ ذلك...

والآن إليك هذه القطعة الأدبية "النورية" التي تتناول هذه المعاني:

"اعلم..! أنّ للمحيط الزماني والمكاني تأثيرًا عظيمًا في محاكاة العقول.. فإن شئت فتعال نخلع هذه الخيالات الزمانية والعصرية والمحيطية، ونتجرد من هذا اللباس الملوث، ثم نخوض في بحر الزمان السيال، ونسبح فيه إلى أن نخرج إلى عصر السعادة التي هي الجزيرة الخضراء فيما بين العصور والدهور، فلننظر إلى جزيرة العرب التي هي المدينة الشهباء في تلك الجزيرة الزمانية. ولنلبس ما نَسَجَ لنا ذلك الزمان، وخاطه لنا ذلك المحيط، حتى نزور -ولو بالخيال- قطب مركز دائرة الرسالة، وهو على رأس وظيفته يعمل.

فافتح عينيك وانظره..! فإن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة: شخص خارق له حسن صورة فائقة، في حسن سيرة رائعة، فها هو آخذ بيده كتابا معجزًا كريمًا، وبلسانه خطابًا موجزًا حكيمًا، يبلّغ خطبة أزلية ويتْلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والأنس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب..! ما يقول..؟ نعم، يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم؛ إذ يشرح ويحلّ المعمّى العجيب في سر خِلْقَةِ العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة التي شغلت العقول، وأوقعتها في الحيرة. إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي: مَن

أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟"[٤٩]

ثم يستطرد قائلاً:

"أنظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياء نوارًا ومن الحق نورًا مضيئًا حتى صيّر ليل البشر نهارًا وشتاءه ربيعًا، فكأن الكائنات تبدل شكلها فصار العَالَمُ ضاحكًا مسرورًا بعدما كان عبوسًا قمطريرًا"[٥٠].

٢٤- الفناء والأبد

أيّ أعماق مجهولة غامضة يسبرها قلم هذا الرجل العجيب في أكوان الروح وفي سماوات القلب؟! حتى إذا أوغل صعدًا، وعلا مشارفًا، تراءت له "الدنيا" من الأعالي، فإذا هي باطل في باطل، وعَرَضٌ زائل، وخيال ذاهب.. وإذا بفضاء الروح يشتعل ببوارق الأبدية الخاطفة، ولوامعها الكاشفة، وإشاراتها الهادية.. حتى إذا عاد من رحلته تلك توجه إلى الإنسان هاتفًا:

أيها الإنسان المقهور الذاهب في حزنه وأساه! توقف... عد.. لا تيأس.. ها هو بسيط الأبدية يَمْتدُّ أمام ناظريك، أمّم نحوه.. سرْ إليه.. اجتز شعابه، ثم ألق بنفسك في أحضانها وبين يديها.. ماذا تنتظر أيها الإنسان.. أجْزاء من نفسك ذهبت دفينة الماضي.. وها هي أجزاء أخر يضمها رمس يومك.. وبقاياك سيحملها الآتي من الزمان إلى ظلمة قبرك.. فما المنقذ؟ وكيف؟ وأنَّى؟ قلبك زورق نجاتك، فدعه يأخذك إلى ضفاف

---

[٤٩] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٦٩.

[٥٠] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٥٧.

الأبدية.. روحك سفينة خلاصك، فدعْها تأخذك إلى أبواب الخلود.. عبراتك المرار جمرات نار أحرقتْ فؤادي.. وويلات الفزع المرعب من أَشداق الفناء ملأتني إشفاقًا عليك.. جئت لأحمل إليك عزاءً مفعمًا بالأمل والرجاء في عالم أخروي لا موات فيه ولا فناء لتقر عينًا، وتفرغ روعًا.. إزْجاؤك للأبدية، أو إزجاء الأبدية إليك صار أكبر همّي، وأعظم حملي، ومحور رسالتي.. أنا ما أتيتك بجديد، فقلَم القدرة قد كتب في فطرتك ميلاً إلى الأبد، وأملاً في الخلود.. أنا جئت أذكّرك فقط بفطرتك، وبما تنطوي عليه روحك من معاني الأبد والخلود.

والآن اصغ إلى النورسي في هذه المناجاة اللهيفة الصادقة المنبثقة من أعماق قلبه حيث يقول:

"يا رب..! لقد بحثت في الجهات كلها "الجهات الست"، فلم أجد دواءً لدائي...

فنظرت إلى اليمين، وإذا بقبر أبي بالأمس،

ورنا بصري نحو اليسار، فإذا قبري في الغد،

وهذا اليوم هو تابوت يحمل جسمي المضطرب،

فجنازتي ماثلة أمامي، فوق رأس عمري،

وتحت الأقدام ماء خلْقتي ونخاع عظامي ممزوجين،

وكلما نظرت إلى الخلف رأيت هذه الدنيا سرابًا في سراب،

وإذا ما امتدّ نظري إلى الأمام، فالقبر فاتح فاه، وطريق الأبد يتراءى من بعيد،

وإني لا أملك سوى "الجزء الاختياري"، وهو عاجز قاصر عديم الجدوى،

إذ لا مجال له للحلول في الماضي، ولا النفوذ إلى المستقبل،
وإنما ميدان تجواله هو: زمان الحال، وآن واحد سيال...
وعلى الرغم من هذا الفقر والضعف فقد كتب قلَم قدرتك في الفطرة ميلاً إلى الأبد أمَلاً في الخلود،
فدائرة الاحتياج واسعة سعة امتداد النظر، فأينما يصل الخيال تصل الحاجة أيضًا،
بينما دائرة اقتداري قاصرة، كاليد..
ففقْري وحاجتي بسعة الدنيا إذن،
ورأْسمالي مثل "الجزء الذي لا يتجزّأ"،
فأين هذا الجزء من تلك الحاجات التي تسع الكائنات.؟!
ولكني أنطلق في سبيلك من هذا الجزء، كي أحظى بعنايتك،
إنّ رحمتك المطلقة ملاذي،
فالذي يجد فيضًا من الرحمات، لا يعتمد على هذا الجزء الاختياري الذي هو قطرة من سراب...
يا رب!
هذه الدنيا ما هي إلا كالمنام،
وهذا العمر يذهب أدراج الرياح،
والإنسان فان بفناء الدنيا،
والآمال الفانية آلام في البقاء...
تعالي أيّتها النفس التي لا حدود لها،
ضحّي بوجودك الفاني؛
فخالقك الذي بيده الوجود، موجود،

obeikandl.com

له الملك وهو المُعطي،
فافنِ نَفْسَكِ كي تجد النفس البقاء،
وذلك بسرّ: "نفي النّفي، إثباتٌ"...
يا إلهي!
يا ذا الجود والكرم،
هب لي ملكًا من عندك،
وأعطني قيمة لا حدود لها،
فإنك أنت الحفيظ"[٥١].

٢٥-بين العرش والقلب

قَلْبُكَ كُلُّكَ أيها الإنسان.. وكُلُّكَ طَوْعَ قلبك.. وكلك وقلبك، يعتصر أحدهما نفسه في الآخر.. إلا أن قلبك يظل العرش الذي يُظِلُّكَ عندما تتخلى عنك ظِلالُ الآفلات الفانيات من الأشياء التي لا جدوى من تعلقك بها.. فإذا ما انْخَلَعتَ عنها، أو انخلعَتْ هي عنك، وصلتَ إلى الكشف الماورائي الذي يحجب عنك عوالم الغيب بعروشها، وعندئذ سترى أن ما بين عرش الرحمن وقلبك نسبة ضئيلة من العرشية تُظِلُّ وجُودَك الذاتي كما يُظِلُّ عرشُ الرحمن العالمَ.. فإذا ما بارحتْ روحُكَ مسكنَها الطيني، وأشرفَتْ على العالم من فوق، فسترى الظاهر مرآةً للباطن، والباطنَ مرآةً للظاهر؛ والملكَ ظِلَّ الملكوت، والملكوتَ ظِلَّ المُلْكِ؛ وأن اسمَيه تعالى "الظاهر" و"الباطن" يعملان في الخلق سويّة بلا حدود بينهما، فإذا الظاهر باطن، والباطن ظاهر في علم الله تعالى الكلي.

---

[٥١] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:١٩٨.

obeikandl.com

ويبقى ومض العقل مسبارًا ممدودًا يَتَحسَّسُ خبايا البواطن في الأكوان والمكونات، ليزداد معرفة ويَخْصُب إدراكًا، وإذا كان لهذا العقل قدرة نسبية على تفسير المجردات إلا أنه أعجز ما يكون عن تفسير نفسه، لأن الومضة والقدحة الآتية من النور الكلي لا يقدر على تفسيرها إلا النور الكلي نفسه.. فسبحان مَن بيده عرش القلوب والعقول، والملك والملكوت..!

والنورسي يلامس هذه المعاني في القطعة الأدبية الآتية حيث يقول:

"اعلم.. أن العرش كالقلب؛ فقلبك فيك ملك، وأنت في قلبك ملكوت.. ففي دائرة الاسم "الظاهر"، العرش العظيم محيط بالكل؛ وفي دائرة الاسم "الباطن"، هو كالقلب للكون. وفي الاسم "الأول" (الظاهر) يشار إليه بـ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(هُود:٧)، وفي الاسم "الآخر" (الباطن) يرمز إليه بـ«وسقْف الجنّة عرش الرحمن»[٥٢]، إذ لعرش من هو "الأول والآخر"، و"الظاهر والباطن" حصة من الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية.."[٥٣].

٢٦-الجمال بين الحقيقة والمجاز

إذا رحل الجمال فجأة أورث حسرة وعذابًا.. وإذا غاب الحسن على حين غرة هوى العاشق في أشد أحشاء اليأس حلكة.. وجزيرة الحب في روح المحب الحافلة بالسلام والبهجة سرعان ما تتعرض لأشد الأنواء

[٥٢] وفي رواية: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقه عرش الرحمن..» (رواه ابن ماجة في سننه، وابن عساكر؛ وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ٣١١٦).

[٥٣] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:١٩٥.

عصفًا إذا ما جاب قرارة قلبه ولم يجد سوى بقايا جمال محطَّمٍ ابتلعه يَمُّ الزمان، وغدا ذكرى من الذكريات الماضيات.. والذي يعيش تحت سماء العشق الناعمة الزرقاء الصافية يجن جنونه عندما يرى ألسنة نار الفراق وهي تأكل ذلك اللطف الوديع من فوقه وتحيله إلى دخان ورماد.

هيا أيها العُشَّاق! يا شعراء الحُبِّ والجمال..! املأوا الدنيا نواحًا.. أغرقوها دموعًا، على جمال عندما جئتموه لم تجدوه غير سراب، وعلى عشق تاه وضل طريقه وأخطأ حبيبه، وعلى آمال ضائعات في محبوب مضى وتوارى ولم يخلف وراءه سوى أخاديد عميقة من الألم في الروح والقلب.

لماذا المجاز -يا عشاق- إذا كانت الحقيقة أقرب إلينا منه.. ولماذا نرمز ونُكَنّي إذا كنا قادرين على أن نشير ونصرح.. ولماذا الركض وراء السرابات إذا كانت الينابيع الثرى تجري من تحتنا..؟!

كل جمال على الأرض هو رمز لجمال في السماء، والحسن في عالم الشهادة خيال لحسنٍ في عالم الغيب.. والمحبوبات والمعشوقات هنا على الأرض إنما هي أطياف وظلال وخيالات وصور عكستها مرايا المغيبات.. وما يظنونه في المعشوق من بقاء فهو وَهْمٌ وإلى زوال سيمضي.. وما يزعمونه من خلود فسيلتهمه الفناء يومًا ما.

فالجمال عند النورسي مجازي وحقيقي؛ فالمجازي وَهْمٌ لا يسعد قلبًا ولا يروي روحًا، لأنه زائل حائل لا ثبات له ولا بقاء.. أما الحقيقي فهو روح الروح، وحياة القلب، يبقى ببقاء العاشقين، ويبقون هم ببقائه، ويخلدون بخلوده، ويحيون بحياته.. فالقلوب له خُلِقَتْ وله رُصدت، وأي انحراف عنه إنما هو انحراف عن جوهره وحقيقة فطرته لا بد أن

يعاني من جرّائه شتى صنوف الألم والعذاب.. وإلى ذلك يشير النورسي قائلاً:

"اعلم! أيها السعيد المجنون المحزون! إنّ مثلك كمثل صبي أبله قعد على ساحل البحر يبكي دائما لزوال الحبابات المتشمسة. كلما زال واحد بكى عليه ظنًّا منه انطفاء الشُّميسة المتبسّمة في الحباب بزوال الحباب وتحوله.. وقد يبكي لتكدّر ما في الحباب وتشوهه باختلاط مواد كثيفة به، ولا يرفع رأسه حتى يتفطن لتنزه الذات -التي هذه التماثيل جلوات أنوارها المتجددة على وجه البحر وخدود الأمواج وعيون القطرات- عن الزوال بزوال مرايا تجلياته، بل ليس في ما ترى زوال مؤلم ولا فراق أليم.

أما الجمال بمحاسنه وجلواته فثابت بكمال حشمته في تجدد شؤونه وتعدد مراياه.

وأما المرايا والمظاهر فتظهر لوظيفتها وهي راقصة، فإذا تمت الوظيفة استترت وهي ضاحكة.

كذلك أنت، قاعد على ساحل بحر الدنيا تتألم باكيًا على أفول ذوي الكمال والجمال والحسن، وعلى زوال ثمرات النعم عند انقضاء أوانها، تزعم بالغفلة أن الجمال ملكُ ذي الجمال والثمرات مال الشجرة، وتغتصبهما منهما عاصفات التصادفات فتلقيهما في ظلمات العدمات. أفلا تعقل أن من نوّر ما تحبه بنور الحسن هو الذي نوّر كل أزاهير بستان الكائنات، وشوّق عليها قلوب البلابل العاشقين.

إلى كم تبكي أيها المسكين على زوال ما في يدك من الثمرة!

فانظر إلى تواتر نِعَم فالق الحب والنوى في إبقاء شجرة تلك الثمرة.. ثم إلى دائرة انعاماته في أقطار الأرض من أمثال تلك الشجرة إن عقمت.. ثم إلى دائرة تجدد إحساناته في تجدد الفصول والسنين أن صارت سنتك شهباء.. ثم إلى دائرة إدامة إحسانه حتى في عالم المثال والبرزخ بأمثال ما شاهدت في عالم الشهادة.. ثم إلى دائرة إنعاماته الواسعة الأبدية في عالم الآخرة بأشباه ما استأنست به في حديقة الأرض، ثم.. و.. ثم.. وهكذا! فلا تنظر إلى النعمة بالغفلة عن الإنعام حتى تحتاج إلى التشفي بالبكاء، بل انظر من النعمة إلى الإنعام ودوامه، ومن الإنعام إلى المنعم ووسعة فيضه وكمال رحمته، فاضحك شاكرًا له، وبفضله فافرح.

وحتى متى تدمع عينُك ويجزع قلبُك على فراق جمال زال! فانظر إلى كثرة ووسعة الدوائر المتداخلة المحيطة بما تحبه، تُنْسِكَ ألم فراقه بإذاقة لذة تجدد أمثاله وترادف أشكاله. وتلك الدوائر المتفاوتة صغرًا وكبرًا إلى أصغر من خاتمك وأكبر من منطقة البروج، وزوالاً وبقاءً إلى آنٍ ودقيقة وإلى دهر وأبدٍ؛ مظاهر ومرايا ومعاكس ومجاري لجلوات ظلال أنوار جمال ذي الجلال والإكرام الأزلي الأبدي السرمدي القيوم الباقي المقدَّس عن الحدوث والزوال، المنزَّه عن التغير والتبدل. فلا تظنن أن ما في المرآة ملك للمرآة، كي لا تبكي على ما في المرآة بموتها وانكسارها، فارفع رأسك عن الدنيا بخفضه إلى منظار قلبك لترى شمس الجمال، فتعلم أن كل ما رأيتَ وأحببت إنما هو من آياته نِعَمٌ.. ومن آيات جماله أنْ زيّن السماء بمصابيحها والأرض

بأزاهيرها.. ومن آيات حُسنه أنْ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأن كتب العالم في أبدع ترقيم.. ومن آيات بهائه أن أشرق أرواح الأنبياء، ونوّر أسرار الأولياء، وزيّن قلوب العارفين بأنوار جماله المجرد، جلّ جلاله"[٥٤].

٢٧- لمعة في تعريف القرآن

في تعريفه للقرآن الكريم يقول النورسي:

"فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التالية للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم..

وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض..

وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات..

وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة..

وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية..

وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي..

وكذا هو خريطةٌ للعالم الأخروي..

وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح، والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه...

---

[٥٤] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٢٨٨-٢٨٩.

obeikandl.com

وكذا هو مرب للعالم الإنساني، وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية...

وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر له...

وكذا هو للإنسان:

كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة،

وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة،

وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر،

وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل.

حتى أنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة رسائل"[٥٥].

٢٨- الكلمة القرآنية

في "الكلمة القرآنية" تطالعنا ينابيع غزيرة من المعاني، وتبهرنا درر خبيئة من الأفكار والحكم، وتسحرنا رياض خضراء، وحدائق غناء من أزاهير الحياة والوجود.

---

[٥٥] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، ص:٢٢.

وحين نضع أناملنا على نبض "الكلمة القرآنية" نلمس في صدى نبضها نبضات الكون، ونحس في توهجها توهج الأرض والسماء، ونبصر في ضوئها أضواء الشموس والأقمار، ونشاهد في تألقها تألق النجوم والكواكب، وهي تعطينا من هذا كله على قَدَرِ عقولنا، ورهافة حسنا، وعمق نظرتنا، وشموس معرفتنا.

فكلما كنا أقدر على الغوص، وأكثر سبرا للأغوار، وأوسع استشرافًا للآفاق والأمداء زادتنا -الكلمة القرآنية- عطاء، وفتحت أمامنا الكثير من مغاليق أسرارها، ومخابئ كنوزها؛ وما توحيه كلمة -أية كلمة- من معان وأفكار، ومشاعر وأحاسيس في ديوان شاعر، أو في كتاب ناثر ليست سواء مع ما توحيه الكلمة نفسها عندما ترد في كتاب الله.

ففي كتاب الله تأخذ "الكلمة" معاني أعماق وأوسع، وتحتل من النفس الإنسانية مساحات أعظم وأشمل، وذلك لكونها تتحول في "كتاب الله" إلى كيان حي يموج بتلك الحياة المرتبطة بالأزل والأبد، هذا الأبد "غير الزماني" الذي تصب فيه أفكار الماضي والحاضر والمستقبل.

"فالكلمة" تحيا في أجواء الآية، وتتفاعل معها أخذا وعطاء.. والآية ترتع في ربيع السورة وتستروح في ظلالها، وتنهل من نبعها، وتقبس من نورها.. والسورة تتنزل من روح القرآن ومعانية مضمخة بنوره وعطره.. والقرآن كلام الله الحي الذي يستمد وجوده وحياته من وجود "واجب الوجود" ومن حياة "الحي" الذي لا يموت، فلا غَرْوَ -وهذا شأن القرآن- أن يقال: "إن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويضيء بعضه بعضا".

فكلام القرآن يتمخض في حس النورسي وفي وجدانه عن عالم غريب جميل من الصور والأخيلة التي تأخذ طرقها إلى قنوات حسه وشعوره،

وسرعان ما يتناولها شعوره المرهف، وذوقه المصفّى، وفهمه الشمولي، ليشيد منها صروحا شامخة مبتكرة في أدب القرآن، وأسلوب تعامله مع "الكلمة" ومنهج عرضه وطريقة مخاطبته للإنسان.

ويسرّنا أن نعرض هنا بعضا مما كتبه النورسي نصًّا في "الكلمة القرآنية" فيما تناوله من تفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

يقول النورسي:

"حتى أن "العين" -التي معناها الواحد: البصر أو المنهل- يطلق على الشمس أيضا بالرمز إلى أن العالم العلوي ينظر إلى العالم السفلي بها. أو أن ماء الحياة الذي هو الضياء يسيل من ذلك المنبع في الجبل الأبيض[٥٦] المشرف على الكائنات، وقس على ذلك"[٥٧].

* * *

أما ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾(البَقَرَة:٨١)

فاعلم: أن الإنسان إذا وقع في مثل هذا البلاء، قد يتسلى ويأمل ويرجو النجاة من جهات أربع مترتبة:

فأولاً: يرجو أن يسمع أصوات تناجي الناس في القرى المجاورة أو من عابري السبيل حتى إذا طلب العون والمدد أَمَدُّوهُ، ولما كانت الليلة ساكنة بكماءَ استوى هو و"الأصم" فقال: ﴿صُمٌّ﴾ لقطع هذا الرجاء.

وثانيًا: يأمل أنه إن نادى أو استغاث، يُحْتَمَلُ أَنْ يَسْمَعَ أحدٌ

---

[٥٦] الجبل الأبيض يقصد به الشمس التي تبدو كجبل أبيض في وسط السماء.

[٥٧] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، ص:١٢٣.

فيغيثه، ولما كانت الليلة صماء، كان ذو اللسان والأبكم سواء، فقال: ﴿بُكْمٌ﴾ لإلقامهم الحجر يقطع هذا الرجاء أيضا.

وثالثًا: يأمل الخلاص برؤية علامة أو نار أو نيّر[٥٨] يشير إلى هدف القصد.. ولما كانت الليلة دامسة رمداء عبوسا عمياء، كان ذو البصر والأعمى واحدا فقال ﴿عُمْيٌ﴾ لإطفاء هذا الأمل أيضًا.

ورابعًا: لا يبقى له إلا أن يجتهد في الرجوع، ولما أحاطت به الظلمة، كان كمن دخل في وحل باختياره وامتنع عليه الخروج. نعم، كم من أمر تذهب إليه باختيارك، ثم يُسلَب عنك الاختيار في الرجوع عنه، تخلّيه أنت ولا يخليك هو؛ فقال تعالى: ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ لسدّ هذا الباب عليهم وقطع آخر الحبل الذي يستمسكون به، فسقطعوا في ظلمات اليأس والتوحّش والسكون والخوف"[٥٩].

* * *

وأما آية: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾(النُّور:٣٤).

فاعلم: أن الجمود على الظاهر في هذه الآية مع توقد الاستعارة فيها، جمودُ بارد، وخمود ظاهر، إذ كما تتضمن ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾(الإنْسَان:٦١) إستعارة بديعة، كذلك تحتوي ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ على استعارة بديعة عجيبة مستملحة.

فكما أن كؤوس الجنّة لم تكن من الزجاج ولا من الفضة، بل في شفّافية الزجاج، وبياض الفضة، ومن حيث أن الزجاجة

---

[٥٨] أي جسم منير أو نير.

[٥٩] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، ص:١٢٨-١٢٩.

لا تكون من الفضة لتخالف النوعين، أشار إلى الاستعارة بذكر ﴿مِنْ﴾، بالإضافة كذلك ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ متضمّنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر إلى السامع. وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين "العالم العلوي" وتشكل "العالم السفلي" وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجو في لبس الصور من يد القدرة. كأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبِيْضِ من حُلَلِ الثلج والبرد في الشتاء، ومتعمِّمَة بها في الربيع، ثم تزيّنت في الصيف ببساتينها المتلونة، فأظهرت في نظر الحكمة بانقلاباتها معجزة القدرة الإلهية، قابلَها جوُّ السماء محاكيا لها، مسابقًا معها لإظهار "معجزة العظمة الإلهية" فبرز متبرقعًا ومتقمصًا بالسحاب المتقطع جبالاً، وأطوادًا وأودية، والمتلونة بألوان مختلفة مصورة لبساتين الأرض، ملوحًا ذلك الجو بأجلى دلائل العظمة وأجلّها.

فبناءً على هذه الرؤية والمشابهة والتوهم الخياليّ استحسن تشبيه السحاب -ولا سيما الصيفي منه- بالجبال والسفن والبساتين والأودية وقوافل الإبل -كما تسمع من العرب في كلامهم- فيخيل إلى نظر البلاغة: أن قطعات السحاب الصيفي سيَّارة وسياحة في الجوِّ، وكأن الرعد راعيها وحاديها، كلما هزّ عصا برقه على رؤوسهم في البحر المحيط الهوائي اهتزّت تلك القطعات وارتّجت وتراءت جبالاً صادفت الحشر، أو سفنا تلعب بها يد العاصفة، أو بساتين تُرَجّحُهَا من تحتها الزلزلة، أو قافلة شردت من هجوم قُطَّاع الطرق، ومع ذلك يسيرون ويبحرون بأمر

خالقهم، حتى كأن كل ذرة من ذرات ذلك البخار تكمَّنتْ في مكانه أوّلاً ساكنة منتظرة لأمر خالقها.

ولمّا ناداها الرعد -كالبوق المعروف في المعسكرات- "حيَّ على الاجتماع والاتّحاد" تسارعوا من منازلهم مهطعين إلى راعيهم فيُحْشرون سحابًا، ثم بعد إيفاء الوظيفة حقّها وتلقي الأمر بالاستراحة، يطير كُلٌّ إلى وكره.

فبناءً على هذه المناسبة الخيالية، وعلى المجاورة بين السحاب والجبال: إذ الجبل -بعامل البرودة والرطوبة- يتظاهر ويتشكل السحاب عليه بمقداره، ويلبس لباسه، وعلى وجود الأخوّة بينهما ومبادلة الصور واللباس لكلَيهما، في كثير من مواضع القرآن، ومصافحتهما في منازل التنزيل، كمحاورتهما وتعانقهما في كثير من سطور صحيفة الأرض في كتاب العالم، فترى السحاب متوضعًا على الجبل، ويصير الجبل كأنه مرسى سفن السحاب ترسو عليه أو مجلس تتشاور عليه أو وَكْر تطير إليه -استحقا بحكم المجاورة في نظر البلاغة أن يتبادلا ويستعيرا لوازمهما فيعبر عن "السحاب" بـ"الجبل"- مع تناسي التشبيه.

فإذا عرفت ما سمعت من المناسبات،

و﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من جهة السماء.

﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي من سحاب كالجبال.

﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي من مطر كالبَرَد في لونه ورطوبته وبرودته"[٦٠].

---

[٦٠] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، ص:١٣٩-١٤٠.

٢٩- فلسفة الصلاة والزمن

الزمن نفسه، أسحاره وأصباحه، وضحاه وظهيرته، وأصائله وأماسيه، عشاؤه وليله.. هذه الأوقات رموز ومعان لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان، منذ أن تدب الحياة فيه وهو في رحم الأم وحتى يعود في خاتمة المطاف إلى رحم الأرض أمه الثانية الأخرى. فهذه الأوقات هي أصداء الزمن الذي يصرخ بالإنسان منبّهًا وموقظًا، وهي همساته في أذن الروح كلما انتابها كسل أو فتور. ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى الصلوات التي تمثل قمّة الصحو واليقظة في هذه الأوقات: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾(الرُّوم:١٧-١٨).

فعالمنا في إطار الأكوان ساعة إلهية كبرى، عقرب ثوانيها الليل والنهار، وضابط دقائقها السنون والأعوام، وحاسب ساعاتها القرون والأزمان، وكل ميل أو عقرب فيها -كساعة الإنسان اليدوية- يناظر الآخر ويرتبط به، ويتحرك بحركته، ويأخذ حكمه.

والدين -لكي يربطنا إلى هذه الساعة الكبرى، ويلفت انتباهنا إليها، ويجعلنا متيقظين لحركتها لا نغفل ولا نسهو- فرَض لنا ضمن كُلّ وقت من أوقاتها، وموسم من مواسمها نوعًا من أنواع العبادات، وشكلاً من أشكال التقرب إلى الله.. فالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها الكثير من فروض الطاعات ومندوبات الأعمال لها -ضمن هذه الساعة الكبرى- وقتها المعلوم وزمنها المخصوص.

يقول النورسي في حكمة الصلاة في أوقاتها المعلومة:

"تسألني -أيها الأخ- عن حكمة تخصيص هذه الأوقات الخمسة المعينة بالصلاة، وسأشير إلى حكمة واحدة فقط من بين حكمها الكثيرة:

أ-وقت الفجر إلى طلوع الشمس

يشبه هذا الوقت في نداوته ورقّة أنسامه، وعطر أنفاسه، باكورة الربيع وخضرة أيامه، وتفتح أزاهيره وأوراده، كما أن هطول نور الفجر الهادئ الأنوس على الأرض يشير إلى أول نزول الروح الإنساني في رحم الأم، بداية خلقه، ولأنه الخيط الأول من نهار جديد فهو يثير في النفس معنى اللحظات الأولى من اليوم الأول من الأيام الستة في خلق السماوات والأرض.

كل هذه الخواطر والأفكار ينبغي أن تنبعث في نفس المؤمن مرة واحدة وهو يستقبل فجر يوم جديد، فيقوم إلى الصلاة متضرعًا طارقًا باستحياء باب رحمة القدير ذي الجلال ومتمرغًا على أعتاب الرحيم ذي الجمال، عارضًا افتقاره عليه طالبًا العون والتوفيق منه سبحانه، فهذه الصلاة في باكورة يوم المؤمن الجديد هي ركيزة ثابتة يرتكز إليها، وسند يستند إليه، ومشد يشد ظهره ليقوى على تحمّل ما يواجهه به يومه من أثقال الحياة، ومتاعب العيش في غضون النهار. أليس -أيها الأخ- في اختيار هذه الوقت للصلاة حكمة عظيمة ما بعدها حكمة..؟!

بـ-وقت الظهر

الظهر صيف يومه، وشباب نهاره، وعنفوان استوائه، وهو يومئ

بشدة ضيائه ووضوح أنواره إلى ما في الروح الإنساني النازل إلى الدنيا من أنوار إلهية بِكْرٍ لم تتلوّث بعد بدخان الآثام، ولا ظلمات الذنوب.. ومع بلوغ النهار ذروته وميلانه قليلاً إلى الزوال، تتكامل أو تكاد أعمال الإنسان اليومية، حيث يشعر بعدها بحاجته إلى فترة استرخاء نفسي، ويحس بحاجة الروح اللاهفة إلى التنفس والاسترواح، وافتقارها بعد هذا الانغمار بالشؤون الدنيوية الفانية وما تورثه -أحيانًا- من غفلة واضطراب وحيرة إلى الانفلات من هذا كله، والتوجه بإشراقها إلى ينابيع الخلود وعوالم البقاء.

فخلاص روح الإنسان من تلك الأثقال، وانسلالها من بين سحب الغفلة والحيرة، وخروجها من تحت زبد التوافه والأباطيل، في هذا الوقت من النهار، لا يتم إلا بالتجاء الإنسان وهروبه إلى باب الحي القيوم الباقي بتضرع الملتاع وتوسل الملهوف، فيقف بين يدي الله سبحانه وتعالى في صلاة الظهر مكتوف اليدين، واجف القلب، شاكرًا حامدًا لآلائه وأنعمه، متبرّئًا من حوله وقوته، مستعينًا به وحده ﷻ؛ مُظْهِرًا -بركوعه- عجزه إزاء جلاله وكبريائه وعظمته، مُعْلِنًا -بسجوده- ذلّه وخضوعه تجاه كماله الذي لا يزول، ومسبحًا بحمد جماله الذي لا مثيل له ولا شبيه.

فما أشد حاجة الإنسان في هذا الوقت إلى هذه الصلاة التي تنعش روحه، وتذكر قلبه، وتوقظ وجدانه، أفلا ترى معي -يا أخي- أن الصلاة هنا ضرورة من أعظم الضرورات في الإبقاء على يقظة الإيمان وحيويته في النفوس؟

جـ-وقت العصر

ويأتي العصر منسابًا بهدواته الهادئة، ولحظات سكينته الحالمة، طاويًا أساهُ العَذْبُ سرّ الآلام الإنسانية الكبرى، وماسحًا بيده أوجاع القلب البشري المتعب في حومة الكفاح -من أجل بقائه نقيًّا طاهرًا- ضد قوى الشرّ في خفايا الضمير، وخبايا الوجدان، هذا الكفاح المرير الذي لا يعلم سره إلا الله سبحانه وتعالى.

ووقت العصر هو خريف اليوم المثقل بثمار الأعمال، جيدها ورديئها وكهولة النهار المدلفة بهدوء إلى شتاء العمر، وهو يشير -بانحدار شمسه نحو المغيب- إلى الحزن الوقور الآتي مع شيخوخة الإنسان والقادم في صحبة الجسد المهزوز العاجز الضعيف الذي يقول لسان حاله "انظروا -أيها السادة- كُلَّ شيء يحول ويزول، ويمضي إلى عوالم الغيب، وينحدر إلى ما وراء الشهود"...

وهنا ينتفض الروح الرافض المتمرد على الفناء، الساعي إلى الخلود، التوّاق إلى الأبدية، ولأنه مخلوق لهما فهو يعشق الثبات والبقاء، ويتألم من الزوال والفناء، فيتحرك في المؤمن مهيبًا به أن يقوم إلى ضفاف الأبدية، وبحار السرمدية. ويلتمس البقاء من الباقي، ويحتمي من الفناء بالحي القيوم الذي يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرَّحْمَن:٦٢-٧٢) فيؤدّي صلاته مستحضرًا في ذهنه هذه المعاني التي تنسج لروحه في كل ركعة وسجدة ثوب بقائه ورداء خلوده...

ألا ترى -أيها الأخ الحبيب- بعد هذا الذي ذكرناه، كم هي صلاة العصر مناسبة لوقتها، وكم هي ضرورية في أوانها؟!

د-وقت المغرب

الشمس الصفراء الشاحبة تنحدر على مهل نحو المغيب، مخلفة وراءها ظلالاً باهتة، وأشباحًا ناحلة من صور الأشياء والمرئيات.

كما تغيب الشمس -هذا الجرم السماوي الكبير الممتلئ بالحيوية والنشاط- يغيب الإنسان -هذا الجرم الأرضي العظيم- كذلك عندما يحين أجله، وتدقّ ساعة مغيبه، وهو لا يترك وراءه سوى أطياف ذكريات، وبقايا صور في ذاكرة أهله ومعارفه.

ويُغرق الليلُ الدنيا، ويغمرها بالظلام كل مساء وكأنه -وهو الليل الأصغر- يريد أن يذكّرها فلا تنسى أبدًا ذلك الليل الأكبر القادم في يوم ما ليَلُفَّها في يَمِّهِ ويطويها بما فيها ومَن فيها بلجته...

ويهمس المساء ناصحًا في أذن الإنسان: "أترى -أيها الإنسان- كيف يغرق غائصًا في ظلمة الليل كل شيء تحبه وتتعلق به، ألا تراه كيف ينفلت من بين يديك، وينسل من بين ناظريك، منطويًا تحت جناحه، وضائعًا في ثنايا موجه؟! فلا تغتر بما تجد، ولا تفرح بما تكسب، فلا دوام لمطلوبات الدنيا، ولا بقاء لمحبوبات الحياة، فإيّاك والتعلّق بما يمكن أن تفارقه أو يفارقك، وإيّاك والتشبث بالزائلات الفانيات من الأشياء.. بل تعلّقْ بالباقي تبقَ.. وتشبّثْ بالخالد تخلدْ.. وأحبَّ الحيَّ القيومَ تحيا.. وتشوقْ إلى الرحمن الرحيم تُرحَمْ... وفي الظلمات استقبل قبلتك، وأدِّ صلاتك، تتنور

وتتضوأ مهما اشتدّ ظلام الدنيا حولك أو اشتدت عَتَمَةُ قبرك.. هذا هو معنى الصلاة ومغزاها في مستهل هذا الانقلاب الزماني الكبير، وفي أوان هذا الإدلاج من عالم النور إلى عالم الظلام".

فما أعظم -يا أخي- حكمة فرض الصلاة في هذا الوقت، وما أجمل ما تؤدّيه للإنسان في هذا الأوان من أمن وسكينة واطمئنان...

هـ- وقت العشاء

ويأتي العشاء هذا الشتاء الليلي الذي يتغشى بكفنه الأسود وجه الأرض الميّتة مُعلنًا بذلك عن موت يوم آخر من أيام الدنيا، ومضيّه مثقلاً بأعمال البشر بكل خيرها شرّها إلى حافظه الزمن، وعقله الدقيق الذي لا يفوته تسجيل كل صغيرة وكبيرة وحفظها إلى اليوم الموعود.. هكذا تمضي صحيفة النهار البيضاء تجرر بقايا نورها، وتختفي وراء أفق السماء، وتُنْشَرُ صحيفة الليل السوداء مذكّرة الإنسان -الذي كثيرا ما تنتابه الغفلة- بقدرة "مقلّب الليل والنهار" و"مسخّر الشمس والقمر" كما هو شأنه -جل شانه- عندما يطوي بساط الربيع الأخضر من فوق سطح الأرض ويستبدل به ذلك البساط البارد المتثلج الأبيض أيام الشتاء المقرور.

فالجمع -في الخلق- بين المتناقضات، بياض النهار وسواد الليل، حَرّ الصيف وقرّ الشتاء، حياة المخلوقات وموتها، من عمل واحد أحد، فرد صمد لا حَدَّ لقدرته ولانهاية لإبداعات صنعته.

وسجو الليل وصمت سكينته، وهدوات أنفاسه، يقربنا من حافات ذلك العالم الصامت الذي يثوي الأموات في صمته،

openkanar.com

ويجعلنا نسمع طرقات البلى، ومعاول الفناء على أسوار الدنيا وجدران العالم، حتى ليدوي في أسماعنا طنين الهلاك، ونحس في أرواحنا عويل الدمار وأنين الانهيار، ونُصْغي بقلوب واجفة إلى ذلك النداء الأزلي: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(غَافِر:٦١) المالك الحقيقي المتصرّف الحقيقي بهذا الكون، بل المعبود الحقيقي، والمحبوب الحقيقي فيه الذي يقلب الليل والنهار، والشتاء والصيف والدنيا والآخرة، كما يقلب أي إنسان -ولله المثل الأعلى- صفحات كتابه، أو يطوي سجلات كتبه، فيتجلَّى عجْزنا، ويبين فقرنا، وتنكشف حاجتنا إلى من بيده إنقاذنا من ظلمات المستقبل، وليل العالم الكبير، القادم قدوم كل ليل في آخِرَةِ النهار، فيفزع المؤمن في هذا الوقت إلى الصلاة ويردد مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(الأَنْعَام:٦٧)، ويتقرب بصلاته إلى باب مَن هو المعبود الذي كان وما يزال، ومَن هو المحبوب في كل وقت وأوان، مناجيًا الباقي السرمدي بعد خَلْعِهِ للدنيا الفانية، وطرحه لهذا العالم المائل للانهيار في كل لحظة وراء ظهره خارجًا بذلك من ظلمة دنياه، من خلال صحبة خاطفة، ومناجاة موقّتة، مقتبسا النور الذي يضيء حياته، وملتمسًا المرهم الذي يضمّد به جراح قلبه النازفة على مَن زال من أحبائه وفراق مَن فارق من إخوانه ومعارفه، ساكبًا عبرات قلبه، ولوعات صدره على عتبة باب تلك الرحمة، قائما بوظيفة العبودية في خاتمة يومه قبل أن يخلد إلى النوم، موته الأصغر الذي يجر به كل ليلة، والذي لا يدري ما سيؤول أمره فيه عندما يغمض عينيه، ويعقد الكرى

أجفانه.. فتتهاوى عند أبواب النفس كل محبوباته الدنيوية، وتذوب في حرارة صلاته كل أهوائه ورغائبه الزائلة الفانية، ويتلاشى خوفه ويزول ذلّه، ويتحول الصغار في روحه إزاء السادة الدنيويين إلى عز شامخ، وإباء رفيع، لأنه واقف أمام من هو القديم الكريم، وماثل في حضرة من هو الحفيظ الرحيم.

قيفتتح صلاته بالثناء على رب العالمين الكريم الرحيم، الكامل المطلق الكمال، الغني المطلق الغنى، فيرقى إلى مقام الضيف المكرّم في هذا الكون، وإلى مقام الموظف المرموق فيه، رغم ضعفه وفقره وعجزه، لأنه قد سما إلى مرتبة الخطاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فينتسب بذلك لـ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ولسلطان الأزل والأبد. فيقدم بين يدي الله بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عبادات واستعانات الجماعة الكبرى، والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات، طالبا له ولهم الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنور الموصل إلى السعادة الأبدية بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.. ويتفكر ويتأمل في كبريائه وعظمته سبحانه وتعالى الذي ما هذه الشموس المستنيرة، وما هذه النجوم الملألئة إلا جنود مجنّدة لأمره جل وعلا، وإن كل واحد منها ما هو إلا مصباح في دار ضيافته هذه، وخادم له مطيع لأمره، فيكبر عندئذ قائلا: "الله أكبر" ثم يهوى راكعًا.

وإذا كانت الأكوان والعوالم، وإذا كانت السماوات والأرضين، وما فيهن وَمَنْ فيهن ما فتئوا ساجدين سجدتهم الكبرى، مسبّحين تسبيحاتهم العظمى، فما أجمل أن يأخذ الإنسان أيضا مكانه

في صف الساجدين على سجادة الغروب المبسوطة بين أقطار السماوات والأرض، مكبرًا مع تكبيرة الوجود لينال أجر صلاة الجماعة الكونية العظمى، ويحصل على شرف العبودية الممتثلة لأوامر مولاها.

فصَلاة "العشاء" بهذا المعنى، وبهذا الفهم الشامل هي معراج المؤمن، والتي يسمو بها، ويشاهد من عليائها آيات الله وأنعمه وآلاءه.

تلك -يا أخي- هي حكمة الصلاة في هذه الأوقات التي هي منعطفات يومية، وانقلابات زمانية، لكل وقت وزمان منها نوع من أنواع فيوضات الرحمة الإلهية، ولون من ألوان تجليات الأسماء الحسنى. فيبادر إليها المؤمن بصلاته حتى لا تخطئه بركاتها، ولا تفوته رحماتها.[٦١]

٣٠- الإنسان ثمرة الأزمان

في البذرة ينطوي ماضي الشجرة ومستقبلها. وعندما تورق شجرة ما وتتفتح أزاهيرها، وتنضج بعد ذلك ثمارها، فإن هذه الثمار ينبغي أن تتقدم بشكرها للبذرة نفسها، وللجذر الممتد عميقا في باطن الأرض، وللجذع الذي حمل الأغصان، ومر من خلاله الماء والغذاء من باطن الأرض لكل ورقة وزهرة وثمرة.

أما إذا ركب هذه الثمار الغرور، وأصابها العجب، وتعالت شامخة على أغصانها وتشبّثت بحاضرها، وتنكّرت لماضيها، وتناست أصلها،

---

[٦١] الكلمات، سعيد النورسي، ص:٣٨- ٤٦. (بتصرف)

obeikandl.com

وظنّت -في غمرة خيلائها- أنها في غنى عن غذاء جذورها وخمائر جذعها، فأنها تكون بذلك قد خانت نفسها، واختَرَمَتْ حياتها، وأوردت ذاتها موارد الموت والهلاك.

الإنسان أيضا هو أنْفَس ثمار الوجود، وأجمل أزهار الكون، وأكثر أشجار الأرض طيبة، ورسوخًا وجمالا وظلا، تخضر الأرض باخضرار نفسه، ويخضل العالم باخضلال روحه، ويندى الوجود بأنداء قلبه، وتتفيأ الشمس نفسها بوارف ظله.

هذا هو الإنسان الكامل العارف الجامع -في لمحة- بين ماضيه وحاضره ومستقبله، والنافذ ببصيرته إلى جذوره وأصوله الموغلة في القدم.. والعالم بأنه بالمشيئة قدم العالم، وبالقدرة نزل الأرض، ومن الحيّ ﷻ استمد الحياة، ومن الخالق ﷻ استوهب خلقه، وقام يدب على الأرض بشرا سويًّا، وهو بالبصيرة نفسها يطل على مشارف الأبد، ويرنو إلى ضفاف الخلود، ويهفو باشتياق إلى عالم البقاء، وهو على ثقة ويقين بأنه بـ"الباقي" ﷻ سيبقى، وبـ"الخالد" ﷻ سيخلد، ومن الأبدي سينال الأبد، ويحصل على الخلود.

فهذه النظرة الشمولية الجامعة -عند الإنسان المؤمن- هي التي تعطي سلوكيته في التعامل مع الآخرين روحًا نابضًا بالحياة. وحسًّا مرهفًا لا تحكمه ضرورات الأزمنة والأمكنة، ولا تفرضه المصالح والمنافع الضيقة المحدودة.

فهو حين يصْدق مثلا لا يصدق بدافع الضرورة، ولكنه يصْدق لأنه يجد في الصدق جمالاً تهفو إليه النفوس، ويسعى إليه الوجدان، ويطلبه الصدق الأعظم الذي به قام الوجود، وعليه رست السماوات والأرض...

وهو حين يحبّ، لا يحب لغرض، ولا يصطفي لمنفعة، ولكنه يحب لأن الحب هو الدم الذي يغذو عروق العوالم والأكوان، ويمد قلب الوجود بدفقات الحياة، ويمنح الزهرة سر الجمال، والفراشة سحر الألوان، والبلبل عذوبة التغريد، ويهدي القمَرَ نوره الأنوس، والشفَقَ الأحمر حمرته الهادئة، والفجرَ أنفاسَه النديّة، والجدول خريره الحزين، والقلب الإنساني جمال الشجن، والروح أسى الحنين إلى عالم الحب والجمال والخلود في رحاب الآخرة ومنازل الجنة. وإلى أمثال هذه المعاني يشير النورسي قائلا:

"أما الإنسان المنحصر في حلقة واحدة من حلقات الزمن، وفي دائرة واحدة من دوائره وهي دائرة الحاضر، المنقطع عن الماضي والمبتوت الصلة بالمستقبل، فسوف تضيق نفسه بضيق زمانه، وتتحدد آفاق نظرته، ويدخل مرغما في عنق الزجاجة الزمنية الضيقة الخانقة التي تسد منافذ المروءات في نفسه، وتوصد أبواب المكرمات في وجدانه، وتتحول سجاياه الإنسانية الموروثة والتي لا تعرف الحدود إلى سجايا نفعية، وأخلاق انتهازية متلونة، يعامل من خلالها الناس الذين يعاصرهم ويعايشهم وكأنهم كائنات زمانية محدودة بحدود هذا الحاضر الذي يعايشونه، وكأنه لا يعرف من أي ماض تليد مفعم بالمكرمات قد أتوا، ولا إلى أي مستقبل سيلتقيهم في رحابه بعد انقضاء هذا الزمن الدنيوي مهما بدا طويلا في ظاهر أمره. وعندما ينظر الإنسان المحصور في دائرة الحاضر هذه النظرة الكليلة القاصرة تتحول المحبة لديه -والتي هي منبع كل الفضائل البشرية- من كونها عنصرًا من عناصر امتداد

الإنسان في الأشياء من حوله ونفاذه في الكائنات الحية وخلوده في البشرية التي سيلتقيها على أبواب الآخرة إلى مجرد عاطفة ضيقة يابسة توريها المصلحة وتلهبها المنفعة فتفقد بذلك حرارة الروح ونبض الوجدان ودفء القلب الذي يعطي عطاء من لا يريد جزاءً ولا شكورًا.

وحتى محبته لأبيه أو زوجته أو ولده أو أمه، تغدو محبة يكتنفها الجفاف، ويعتورها اليبس، لأنها لا ترتوي من ذلك الحنان الأصيل العميق الذي به ترقى المحبة إلى مرتبة الخلود، وترتفع إلى قمّة الأبد، ولا يستطيع الموت نفسه أن ينال منها، لأن المحبَّ قد أعطى من قلبه للخلود، ووهب للبقاء، ولم يعط من أجل لحظة عابرة، أو لمحة خاطفة، لذا كان المتحابّون في الله -كما ورد الحديث الشريف- على منابر من نور يغبطهم عليها الأنبياء والصديقون والشهداء.

فالماضي والمستقبل هما عَصَوَا الإنسان وعكازتاه اللتان يتوكأ عليهما في مسيره عبر شعاب الزمن ومنعطفات التاريخ؛ فعلى قدر استيعابه لماضيه وجذوره وأصوله وخلفيات تاريخه المتصلة بما "قبل الزمن" والمرتبطة بمشيئة الغيب وإرادة القدر الإلهي.. وعلى قدر وعيه وقدرته على التأمل المستقبلي والاستحضار الدائم للحظات المآل والمصير والنفاذ ما وراء "الزمن" إلى حيث "الأبد" الذي سترسو سفينة الإنسان على ضفافه في خاتمة رحلته. أقول: على قدر هذا الاستيعاب للماضي، والوعي للمستقبل والمصير، تكتسب مسيرة الإنسان في هذا العالم خَطوَها الرصين، ومسيرها

الهادئ الموزون على الصراط الذي يجنب الإنسان الانحراف والضياع والشتات، ويمنحه النور الذي يبدد ضبابية الفهم وعشوائية التصرف والسلوك.

أما الإنسان الذي يحدد نفسه بـ"الحاضر"، وينغمس في لحظاته وساعاته، ويغرق في أمواجه ولججه، قاطعًا بذلك صلته بجذور ماضيه، واضعًا أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع نداء المستقبل، وهتاف الآتي، ومستغشيًا ثيابه حتى لا يبصر لمعات الخلود، وبوارق الأبد، فهو إنسان يثير الإشفاق لأنه قد اختار -دون مبرر- الكفر، وحكم على نفسه بالعذاب الأبدي في سجن الآخرة الرهيب"[٦٢].

٣١- نماذج أدبية من "النورسي"

أ-لا تُشَتِّتْ جنود صبرك

"اعلم، أيها المصاب ببليةٍ دامت من مدة! لا توزّع من جنود صبرك وقوته في مقابلة ما مضى إلى يومك هذا، بل إلى ساعتك هذه؛ إذ التحقتْ تلك الأيام الأليمة الخالية إلى صف جنودك بانقلابها لذائذ معنوية وحسنات أخروية. وكذا لا توزّعْ من صبرك في مقابلة ما يأتي بعد يومك هذا، بل ساعتك هذه؛ إذ هو عدم ومعدوم وفي يد المشيئة. فاجمِع جميعَ قوّة صبرك وجنودِه على هذا اليوم، وفي هذه الساعة، مع تقوّي قوتك المعنوية بالتحاق جنود البلايا الأعداء إلى جنودك بانقلابها أحبابًا ممدةً،

[٦٢] رجل الإيمان، أديب إبراهيم الدبّاغ، ص:١١٤-١١٧.

مع الاستمداد من التوكل على المالك الكريم الرحيم الحكيم في مقابلة ما يأتي. فإذا فعلتَ هكذا، يكفي أضعفُ صبرك لأعظم مصيبتك.."[٦٣].

بـ- مَنْ أنتَ؟!

"اعلم، أنك صنعة شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة على صفات الصانع مُجَسَّم الحكمة النقاشة، ومتجسَّدُ العلم المختار، ومُنجَمَدُ القدرة البصيرة بما يليق بك، وثمرة الرحمة السميعة لنداء حاجاتك، ومتصلّب الفعل المريد لما يريده استعدادك، ومتكاثَف الإنعام العليم بمطالبك، وصورة القدر المرسِّم المهندس الخبير بما يناسب بناءك.."[٦٤].

جـ- قيودك

"اعلم، أنك مقيد بالتعيّن، في مقيد بالبدن، بمقيد بالعمر، محدود الحياة في محدود البقاء بمحدود الاقتدار. فحينئذ لا بد أن لا تصرف هذا العمر القصير القليل الفاني للفاني حتى يفنى، بل للباقي ليبقى.."[٦٥].

د- القطرات والبحور

"اعلمْ أيها الإنسان، أمامك مسائل عظيمة هائلة، تُجبر كلّ ذي شعور على الاهتمام بها!..

---

[٦٣] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣٤٩.

[٦٤] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٢٩٩.

[٦٥] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣٠٠.

منها "الموت" الذي هو فراقك عن كل محبوباتك من الدنيا وما فيها.

ومنها "السفر" إلى أبد الآباد في أهوال دهاشة.

ومنها "عجزك" الغير المعدود، في "فقرك" الغير المحدود، في سفرك الغير المحصور، في عمر معدودٍ محدود، وهكذا.

فما بالك تناسيتَ وتعاميتَ عنها كطَيْر الإبِل [أي "النعامة"] يخفي رأسه في الرمل، ويغمض عينه لئلاّ يراه الصيّاد.. إلى كم تهتم بالقطرات الزائلة، ولا تبالي بالبحور الدهاشة!."[٦٦].

٣٢- الخلاصة والخاتمة

كثيرٌ هم أولئك الذين يعرفون الأستاذ النورسي رائدًا كبيرًا من روّاد العمل الإسلامي في تركيا الحديثة ١٢٩٣-١٣٧٩هـ، إلا أن أعماله الأدبية ما زالت مجهولة من قبل أغلب الأدباء والمثقّفين والنقّاد العرب.. فشهرته كرائد إسلامي طاغية على شهرته كأديب، على الرغم من أن معظم نتاجاته في الحقل الإيماني ذات نَفَسٍ أدبيّ يبدو واضحًا للقارئ المتمعّن.

والمنطلق الذي ينطلق منه النورسي في أعماله الإيمانية والأدبية منطلق واحد، وهو "الإنسان" هذا المخلوق العجيب الذي خلقه الله تعالى لنفسه، وأراده مرآة يشاهد فيها عظمة قدرته، ودقّة صنعته.. وسخَّر له الكون، ومنَحَهُ من مطلق صفاته وأسمائه الحسنى نسبيات محدودة من "الوجود" و"الحياة" و"القدرة" و"العلم" و"الإرادة"، لكي يقيس ما عنده من نسبيات هذه الصفات على ما عند الله تعالى من مطلقاتها. فيعرف ويشكر ويعبد

---

[٦٦] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٣٥٢.

كما يقول النورسي.

فتعريفه بكرامته ونفاسة وجوده، وعظمة رسالته في الحياة واستثارة قواه الداخلية، وطاقاته الكامنة، وإيقاظ لطائفة ووجدانياته ولَمِّ شَتَاتِهِ، وتجميع ما تفرَّق من قواه النفسية ثم حشْدها ورَصُّهَا في صفٍّ واحد قويّ متماسك لمواجهة هجمات العدم الذي يسعى لتدمير روحه، وخنق أشواقه وتطلعاته الفطرية إلى البقاء والخلود، هو مجمل أفكار النورسي الأدبية والدينية.

ولعل كتابه الأدبي العظيم "المثنوي العري النوري" هو خير ما يفصح عن هذه المقاصد والأهداف التي اعتمدها في كل كتاباته.

فهذا الكتاب دُرَّةٌ من دُرَرِ أدبه، وتحفة فنّية من تحف فكره وقلبه، وهو لا يقل بأي حال من الأحوال -إن لم يرجح في جوانب منه- على "مثنوي الرومي" ولكن لسوء حظ هذا الكتاب أنه لم يصبح معروفًا لدى قراء العربية إلا قبل سنين عديدة، حيث اهتمَّ به وحققه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، غير أنه لم يزل ينتظر الناقد الذي يقدمه إلى قراء العربية ككتاب فذ في "أدب الإيمان"، وبحاجة كذلك إلى المترجم الحاذق الذي ينكب على ترجمته إلى إحدى اللغات العالمية، وهو لو عُرِفَ بشكل جيّد من قبل نُقَّاد الغرب لعرَّفوا به، ولأشادوا به، ولشق طريقه ليحتلّ مكانة مرموقة إلى جانب أعظم الأعمال الأدبية العالمية. لأن اهتمامات هذا الكتاب منصبة بالأساس على أوجاع القلب البشري، وآلام الروح الإنساني، وإشفاقهما من الفناء والعدم. فهو مكرس لمساعدة الإنسان على خلاصه من براثن العدم والهلاك الأبدي، وإنقاذه من هجمات الفناء، والأخذ بيده إلى أبواب البقاء والخلود، وهذا هو ما يتوق إليه كل إنسان

ويتطلع إليه حيثما كان في هذا العالم، وهذا هو ما سيجعله يتبوأ -في المستقبل القريب- مكانة عالية إلى جانب الأعمال الأدبية الخالدة.

و"المثنوي" ليس مجرد جزالة في اللفظ، ولا براعة في الكلام، بل هو جزالة في المعنى يبهر الذهن، وجلال في الفكر تنحنى له الهامات احتراما، وشرف في المقاصد والغايات تنجذب إليه النفوس العفيفة والشريفة.. فقد أوتي صاحب "المثنوي" فضيلة الإتيان بكل جليل وجميل من الأفكار، وبكل شريف وطاهر من الأحاسيس والمشاعر، ولم يزل غراسه قادرا على أن يَزْكُو ويَعْلُو ويعطي ثماره في تربة الأذهان المتلقّية، بل هو عنصر فكري مُشِعٌّ يؤثر في العقول، ويستولدها في كل مرةٍ أنسالاً جديدة مبتكرة من الأفكار، تزيد العقول اتساعًا، وتشحذ قدراتها على التفكر والتأمل في عوالم الغيب والشهادة، وعوالم النفس الإنسانية والكونية على حد سواء.

* * *

والمفكرون من ذوي العقول الخصبة، والأرواح الكبيرة، يَشْكُلُ عليهم أمر أنفسهم أحيانًا، فيخالون أنفسهم طورًا في أعلى قمة من قمم العطاء، وآنا في أسفل دركات العجز والقنوط، وهذا الشعور كان ينتاب النورسي بين الفينة والفينة وإذ لم يكن لديه ممتلكات دنيوية تشغله عن رسالته، فهو كذلك ليس له ممتلكات فكرية يباهي بها وينسبها لنفسه، لأنه يعزي أعماله الأدبية والإيمانية إلى إلْهامات القرآن، وأنه ليس أكثر من أداة مسخرة قد سخَّره القدر لخدمة المقاصد الإيمانية والقرآنية، وأنه أعجز من أن يأتي بما أتى به لولا التأييد الربّاني والإلهام القرآني، حتى لكأن حشودا من الإلهامات الربّانية تقطن عقله ووجدانه، وتوجّه رغائبه، وتمْلي عليه خواطره وأفكاره وكثيرًا ما ينتابه التوجس والقلق إذا ما اضطره ظرف

ما أن يكون خارج عالمه الروحي، فهو لا يستطيع ولا يقوى على مغادرته إلى أي مكان آخر.

ولكي نفهم عظمة النورسي مع التواضع الجم، والإحساس بالعجز والافتقار، يحسن أن نقرأ الآتي بإمعان وتأمّل حيث يقول:

"يا ناظر! أظنّني أحفر بآثاري المشوّشة عن أمرٍ عظيم بنوع اضطرارٍ منّي. فيا ليت شعري هل كَشَفتُ.. أو سينكشفُ.. أو أنا وسيلة لتسهيل الطريق لكشّافه الآتي"[٦٧].

فهو يحفر بسنان قلمه في أغوار "النفس" وفي أطباق "الأكوان" مفتّشًا عن ذلك الأمر الخفي المكنون مدفوعًا إلى ذلك بقوة قدرية قاهرة يجد نفسه ملزما بطاعتها والاستجابة لها.

وهذا الأمر العظيم إنما هو الكشف للأجيال عن السلك النوراني الممتدّ بين روح الإنسان وروح الله، وبين أشواق القلب البشري والحب الإلهي العظيم للإنسان أعظم مخلوقاته، وأنْقاهم مرآةً لجلوات أسمائه الحسنى.

ولكنه -أي النورسي- مشفق من أنه لم يستطع إنجاز هذه المهمة على الوجه المطلوب، غير أنه لا يتوقف لحظة عن البحث والتنقيب لعله إن فاته أن يكون ذلك الكشاف الرائد، فلا أقل من أن يكون بآثاره الفكرية، وسيلة ممهدة في الطريق نفسها التي مضى هو فيها للآتين من بعده، ليحملوا على عواتقهم المهمة نفسها لعلهم ينالون شرف هذا الكشف في الآتي من الأزمان.

---

[٦٧] المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، ص:٢٣٩.

* * *

وهذا الكشف العلوي لأعظم حقائق الوجود، والإمساك بطرف السلك النوراني بين الخالق والمخلوق، والعبد والمعبود، احتاج إلى قوى روحية محلقة، وعقل مُجَنَّح قادر على ملاحقة الروح في جولانه بمملكة المعاني المجردة، على الرغم من الانسحاق الذي أراد أعداء النورسي إلحاقه بروحه تحت شتّى صنوف الاضطهاد والسجن والنفي والتشريد، فباءت محاولاتهم في كسر أجنحة روحه بالفشل، وإرهاق عقله، وإنهاك فكره بالإخفاق؛ فاستطاع متجاوزا جميع هذه العقبات والمعوقات أن يمنح تلامذته وقراءه بصائر نافذة في ظلمات الطبيعة التي رُشِحَتْ من قبل الكثير من مثقفي عصره كبديل عن ربوبية الرب، وخلاّقية الخالق.

فقارئ النورسي يجد نفسه بغتة في صميم أحواله الروحية ممسكًا بجوهرة الحياة الأبدية، التوّاق لبلوغها عند مغادرته لهذه الدنيا.

ولكي نلمس عن كثب ما عاناه النورسي من آلام وأوجاع وعذابات لنقرأ ما كتبه هو عن نفسه حيث يقول:

"لم أَذُقْ طوال عمري -البالغ نيّفا وثمانين سنة- شيئًا من لذائذ الدنيا.. لقد قضيتُ حياتي في ميادين الحرب، وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن، ومحاكم البلاد.. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعْه.. عُوملتُ معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العُرْفية، ونُفيت وغُرِّبْتُ في أرجاء البلاد كالمشرّدين، وحُرِمْتُ من مخالطة الناس شهورًا في زنزانات البلاد، ودسَّ لي السمّ مرارًا، وتعرَّضتُ لإهانات متنوعة، ومرَّت عليَّ أوقاتٌ رجّحتُ فيها الموتَ على الحياة ألف ضعف، ولولا أنّ دِيني

يمنعني من قتْل نفسي فربّما كان سعيد اليوم ترابًا تحت تراب"[٦٨].

ويبقى النورسي شخصية عالية غير عادية، تند عن الفهم إذا حاولنا فهمه ضمن الموازين التي يوزن بها الرجال ما لم نسبر أغواره التي تعكس نشاطاته الفكرية والدينية، وكما لا تُسْبَر البحار والمحيطات بمسابير الأنهار ولا يُوزَنُ الذهب الخالص بميزان غيره من المعادن.. وكذلك ليس من الصواب أن ننظر إلى النورسي بالمنظار نفسه الذي ننظر به إلى عظماء رجال الفكر والدعوة؛ فالنورسي شوق مُذَابٌ، وقلبٌ رغم قوته يسيل حبًّا، ويقطر لوعة، وروح خافق، ونفس مولَّهَةً، وشفقةً وإشفاقٌ على بني جلدته وأمّته، وعلى بني الإنسانية قاطبة.. إنه يحتضن الإنسان ويخاف عليه من سجون العذاب الأبدي في الآخرة، كما يحتضن أجزاء من نفسه وقطعة من كيانه، ولنستمع إليه وهو يفصح عن نفسه قائلا:

"لقد ضحّيتُ حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع.. فليس في قلبي رَغَبٌ في الجنّة، ولا رَهَبٌ من جهنم، فليكنْ سعيد [يعني نفسه] بل ألْف سعيد قرْبانًا ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليونًا فقط، بل في سبيل المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين.. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض، فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضًا سجْنا لي.. وإنْ رأيتُ إيمان أمّتنا في خير وسلام فإنّني أرضى أن أُحْرَقَ في لهيب جهنم، إذ بينما يُحْرَقُ

---

[٦٨] سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ص:٤٥٧.

جسدي يَرْفُلُ قلبي في سعادة وسرور"[٦٩].

* * *

والجمال في "أدبيات النورسي" ليس صفة سلبية حيادية يمتلكها الجميل بلا فعل ولا إرادة ولا تأثير، بل هو طاقة حيوية إيجابية وقوة فاعلة مؤثرة، وقدرة على الإبداع.. فهو يظل يُبدع من المرايا ما يشاهد فيها نفسه، ويتأمّل محاسنه؛ فالجمال والخلق متلازمان لا ينفكّان، فحيثما نجد جمالا فإننا نجد بإزائه مرآة تعكس محاسن هذا الجمال، وربما افتقدناه -أي الجمال- فلا نلتقيه إلا متجلّيًا في إحدى المرايا، وإلى هذا يعزي النورسي سر خلق العوالم والأكوان، وسر خلق الإنسان، فلولا الجمال التوّاق إلى مرايا يشاهد فيها تجلياته لم يكن هناك أكوان ولا عوالم ولا إنسان.

فالجمال إذن هو جوهر الحقيقة الكونية والحقيقة الإنسانية على حد سواء.. والحقيقة الكونية والإنسانية هما المرآة العظمى لتجلّيات أنوار الحقيقة الإلهية، وما المعاني والأفكار والخواطر والإلهامات إلا مرايا تعكس أقباسًا من نور أسماء الله الحسنى على قدر شفّافيتها وصفائها وسعتها.. وأجلُّ هذه المرايا من المعاني المجردة التي تعكس أعظم التجليات إنما هي: الرحمة والصدق والشرف والإشفاق والمحبة وسائر المحامد والمناقب.. والحياة نفسها ليست أكثر من عالم نوراني تَفَطَّرَ عنه قلب الجمال، فهو لباب الأشياء، وكل شيء من بحره يستقي وإليه يعود.. والجمال بعد ذلك كله هو موسيقى الخلق والإبداع التي تهدهد

---

[٦٩] سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ص:٤٥٧.

آلام مخاضات الوجود الكبرى المتعسرة في الفكر والحياة والسارية في مفاصل الأكوان لينشق قلبها عن دفقات متتالية لا تتوقف من العشق والشوق والطرب.

* * *

في منافيه القصية، ومنعزلاته في البراري وفوق قمم الجبال كان "الحق والجمال" يشغلان فكره، ويثيران فيه عالما فسيحًا وعميقًا من التأمّل والنظر.. أما نوازع الدم فقد غادرت حياته منذ أمد بعيد وإلى الأبد، ولم يكن تقشفًا ذلك الذي يفرضه على نفسه بل هو روح التقشف، وليس عطاء ما يجود به قلمه بل هو قلب العطاء وصميمه، وما يُفَجِّرُهُ بعزمه القوي ليس ينبوعَ أملٍ بعيد المنال بِقَدْرِ ما هو يقينٌ يحيا به ليله ونهاره، ويعيش به ولأجله.. وإذا ما صام عن الكلام فإنه يفعل ذلك ليس برغبة في الصمت بل هو استرواحًا للروح واستنباتا لأزاهير الحكمة التي لا تُسْتَنْبَتُ إلا في مشتل الصمت، ونفسه الصافية المستقيمة كان لا بد لها أن تتحد وتتوحد بكل ما هو عادل وصادق في الإنسان والحياة.. ولو قيل لمجتمع "الإيمان" أين ضميركم الخافق وروحكم النابض، لأشاروا إليه، وأَوْمَأُوا نحوه.. وفي ذاته تقطن مقاومة عنيدة لا تعرف الاستسلام، ومن كان متين البناء، صلب العود كالنورسي فأنَّى تستطيع سهام الأعداء أن تخترقه.. إن إيمانه لا يقهر، ومواهبه الفكرية والوجدانية موضع ثقة كل من قرأه أو عرفه عن كثب. وآلاف الأرواح التي تجوب العالم وهم يتناوحون تناوحًا مخيفًا باحثين عن الحقيقة، وجَدوا ضالّتهم في أفكار هذا الرجل وفي تفسيراته المقْنعة للغْز الإنسان والكون والحياة.. فأعماله الأدبية ذات موضوعات عظيمة تمس روح الإنسان وقلبه، وقد قدّم في كتاباته إحساسًا

مُصَفًّى، وشعورًا مرهفًا حادًّا أرهفته التجربة، وشحذته المعاناة.. وبمزيد من الشفقة والإشفاق كان يقابل أعداءه، ويعالج كراهيتهم وأحقادهم، وهذا هو انتصاره وانتصار "رسائل النور" التي بات يقرأها اليوم الملايين من الناس، وهو لا يجد سقوطا أشنع للإنسان من أن تتجرد فلسفته في هذه الدنيا من أي معنى إلهي، وعلى وفرة رجولته وصلابته لم يستطع أن ينفض عن كبده أحزانًا لازمته حتى موته، أو أن يمنع عينيه من أن تفيض بالدمع في مواقف الذكريات.. وفي رحلته إلى "بارلا" بعد عشرين سنة من مغادرته لها نستمع إلى لسان حاله يقول:

"إيه "بارلا".. يا شقيقة الروح، ورفيقة الفؤاد، وبستان الفكر، وحقل الأشواق، ومستودع الآلام، ومزرعة الآمال... هاأنَذا أعود إليك بعد عشرين عاما لألتقي في ربوعك بعض نفسي، ولأعانق في أجوائك مُزَعَ الروح وبقايا الوجدان.. فوق كل سفح وقمّة، وعند كل سهل وحَزَنٍ، وعلى كل شجرة وغصنٍ وزهرةٍ، وفي الشعابِ والمنعطفاتِ، وبين الحقولِ والبساتينِ".

أيها الأستاذ! ها أهل "بارلا" يخرجون كلهم شبابًا وشيبا، رجالا ونساء وأطفالا، يستقبلونك ويرحّبون بك وقد هاجت بهم الأشواق، وطفحت بهم المشاعر، فتدمع عيونهم فرحا، وتجيش عواطفهم محبةً وإكرامًا وتعظيمًا.. وتمضي تشق طريقك بصعوبة بالغة بين جموع الأهالي إلى دارتك الحبيبة التي أمضيتَ فيها ثماني سنوات كاملات، تلك الدار التي شهدت منابع فكرك الأولى، وحملتْ أثقال أحزانك وآنست لوعة غربتك، وهدهدت أوجاع وحشتك، وضمت حناياها عليك في ظلمات الليالي وهدوات سكينتها وأنت

غارق في تأملاتك أو وأنت في صلواتك وذكرك وتهجدك.

وتتثاقل خطاك وأنت تقترب من بيت تلميذك القديم "مصطفى شاويش" وهو النجَّارُ الذي نَجَّدَ لك تلك الغرفة بين أغصان الشجرة التي كنتَ تقضي فيها ساعات العبادة والتّأمّل في فصل الصيف.. وإذا بالبيت الحزين مقفر موحش بعد أن رحل صاحبه عن الدنيا يومَ كنتَ منفيًا في "قَسْطَمُوني" وقفْل كبير معلّقٌ على باب البيت وكأنه يقول: "أيها المارّون.. مُرُّوا بسلام، ولا تقتحموا أقفال الأحزان الكبيرة.. اتْركوا أشجان هذا البيت المتفرد تنعم بالصمت والسكون"..

وتشعر وأنت تقف أمام البيت بجلال الآلام البشرية، وبجمال الحزن الصامت المهيب، وتجهش بالبكاء، وتغرق عيناك بالدموع...

ثم تمضي قلبًا لهيفًا، وروحًا خافقًا، ونفسًا مولّهةً نحو تلك "الشجرة" الطيبة المباركة التي آوتْك يوم عزَّ المأْوى، وَضَمَّتْكَ حناياها يوم تجنّبك الناس، وجافاك البشر، وَظَلَّلتْكَ أغصانها وأوراقها من حرور الأيام وقساوة بني الإنسان، وفرشتْ لك خضرة قلبها، ومنحَتْك ربيع نفسها، في وقت كان شتاء بشريًّا رهيبًا يحيط بك من كل جانب، وصحارى إنسانية قاحلة جرداء تَهُبُّ بسموم أحقادها عليك من كل مكان.

وتقترب لحظة اللقاء.. وتسير حتى إذا أصبحتْ في متناول يديك، إذا بك تميل عليها وتحتضنها احتضانَ من يَضُمّ إليه جزءًا من نفسه، وقطعةً من كيانه.. وتلتصق بها التصاق العائد إلى حضن أمه بعد غياب طويل.. وتتلمس جذعها وأغصانها وأوراقها بيدك

وعينك وبكل جارحة من جوارح كيانك.. وتلصق بها وجهك المبلّلَ بالدموع، وأنت تغالب دمعك فلا تستطيع، وتخنق أزيز الحنين فيأبى عليك ويستعصي على رغبتك، فإذا بنشيجك يتعالى، وببكائك يرتفع.. ويرين على الحاضرين من حولك صمت خاشع وسُكون أسيان.. وتصعد إلى غرفتك وحيدًا متفردًا كما صَعَدْتَ إليها قبل عشرين عامًا.. ويظل تلامذتك والناس معهم في مكانهم صامتين لا يريمون.. وتدلف إلى معتزلك القديم وتظل فيه مدة ساعتين، ويسمع الناس صوتا حزينا باكيا ينبعث من غرفتك، وأنت تستعيد ذكرياتك وأيامك التي أمضيتها فيها...

وتدمع أعينهم في صمت احتراما لآلام النفوس العظيمة التي لا يسعها الكون نفسه، ولا يقدر على استيعابها واحتوائها غير رحمة الله تعالى"[٧٠].

---

[٧٠] انظر: سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ص:٤٦٤-٤٦٥؛ وانظر: رجل الإيمان، أديب إبراهيم الدبّاغ، ص:١٢٠-١٢١.

openkandil.com

إسطنبول بين الدين والأدب

١- الكلمة الأدبية

كالنجم الثاقب يخرق سماء النَّفس ليستقرَّ في عمق الروح، هي الكلمة التي نريدها من الأدب.

الكلمة التي لا تميت ولا تحي، ولا تهدم ولا تبني، ليست هي بالكلمة التي نحفل بالأدب من أجلها.

الكلمة التي لا تُجدد ما عتق من روح الأمة، ولا تُرمِّم ما تآكل من وجدانها، ليست هي بالكلمة التي نطلبها من الأدب.

الكلمة الصمَّاء التي لا تُصغي لأنين روحي، ولا تستجيب لصراخ قلبي، هي من رميم الكلام الذي مكانه القبور لا الجري فوق السطور.

الكلمة التي لا تَحْفِزُ قوى عقلي، ولا تستنهض نُوَّامَ أشواقي، ليست بأكثر من لغو وهراء.

الكلمة التي لا تُقَوِّم مِعْوَجَّ سلوكي، ولا تصلح فاسد رأيي، يستوي عندي وجودها وعدمه.

٢- الأديب

الأديب الذي لم يعد عنده شيءٌ جديد يقوله، عليه أنْ يكسُرَ قلمه، ويُهْرِق دواته، وَيَحْرُقَ أوراقه.. فقد جَفَّ معينه، ووهنتْ روحه، وشاخ قلبه.

الأديب الذي لا يعجن كلماته بدم قلبه، ولا ينضجها بتنَوُّر روحه، قلَّما يحدث أثرًا في قرّائه.

كيف يكتب الأديب شيئًا عظيمًا إن لم يكن هو نفسه عظيمًا؟!

obeikandi.com

الأديب الذي لا يشيد بجوانب العظمة في النفس البشرية، يخون الإنسان ويحقر من شأنه.

الأديب الذي لا يعتنق رسالة يبشّر بها، وينافح عنها حتَّى بروحه إذا اقتضى الأمر، ليس بأكثر من هاوي كلام يزجي به فراغ عقله.

الأديب الذي لا يحمل هموم الأمة، ولا يتوجّع لانكساراتها الروحية والحضارية، خائن لأمّته.

٣- بين الأدب والدين

وقد يرتقي الأديب ويعلو، ثمَّ يرتقي ويعلو، ثُمَّ يظَلُّ يعلو وراء حقيقة الوجود، وجوهر الحياة، وسرّ النَّفس الإنسانية، حتَّى إذا ما وصل في علوه نقطة فقدان الوزن، وتعويم العقل، وتناوشته الحيرة من كل مكان، واكتنفه عالم الغموض والخفاء، وغشيته دياجي العماء، ودار رأسه، وزاغ بصره، وعاد من رحلته تلك غضبان أسفًا، وألقى ما في يده من ألواح الفكر والأدب... عند ذاك يفتح له الوجدان كوةً يلج منها إلى الدين، لعلّه يجد في كنفه الطمأنينة والسلوان.

وتاريخ الأدب في الشرق والغرب يحفظ لنا أسماء جَمٍّ غفير من الذين بدأوا حياتهم من الفكر والأدب، ثمَّ دارت بهم الأيام فانتهوا -في خاتمة المطاف- إلى الدين الذي وجدوا فيه ملاذهم الأخير.

فالنازع الأدبي مع النازع الديني يظلاَّن يستبقان كفرَسَي رهان في ميادين الوجدان البشري.. فما من أديب إلاَّ وله نازع ينزع به إلى الدين عَرَف ذلك أم لم يعرف.. وما من متدين إلاَّ وله في الشعر والأدب باع قد يقصر أو يطول إلاَّ أنه موجود على كل حال.

ومثال ذلك ما نراه في رجال التصوف المرموقين من أذواق أدبية عالية، وما يأتون به من إبداعات في الشعر والأدب يضاهون بهما ما عند أكابر الشعراء والأدباء، وما نلمس من قدراتهم الفائقة على التعبير عن أدقّ الخلجات والمشاعر والأفكار، وعمَّا يعتلج في أرواحهم من حنين وأشواق في المحبة والعشق الإلهي.

فالعبقريتان الدينية والأدبية قد تلتقيان في المرء، فتكونان تيارًا عظيمًا يتدفق بأخصب المعاني والمشاعر والأفكار، وفي تاريخ الفكر أمثلة كثيرة لا يحصيها عَدٌّ على التقاء هاتين العبقريتين عند بعض المفكّرين.. فأصحاب العبقريتين هؤلاء شموس عالية في الدين والأدب، وهم مثار فخر للإنسانية في كل زمان ومكان.

٤- النموذج والمثال

والإمام النورسي -رحمه الله- عبقرية دينية بإجماع جمهرة غفيرة من المعنيّين بشؤون الفكر الديني في كل مكان عُرِف فيه، غير أنَّ الجانب الأدَبي من هذا الفكر لا زال دون شهرة فكره الديني، وبقي حتَّى هذا اليوم ينتظر الناقد الحصيف الذي يَدُلُّ عليه، ويُعَرِّف به، ويُشخِّص ما فيه من مواطن الجمال، وعظمة الجلال.

فرسائله -رسائل النور- بمجلّداتها العشرة تفصح عن هذه الملكة الأدبية عند الرجل.. على الرغم من أنَّ هذه الرسائل تعالج بالأساس أفكارًا إصلاحية في الدين والحياة، غير أنَّها تتكشف عن روح شاعري مرهف، وعن حسّ أدبي بالغ التأثر بشجن الإنسان في هذا العصر الجديب، وبما يتفطَّر من روحه من أَسًى كئيب.. فهو لا ينظر إلى مأساة

المسلم التائه من عَلٍ، ولا يتفرّج عليه وهو يتقلَّب بين أوجاع البعاد عن الله، بل يشاطره الآلام، ويقاسمه الأوجاع، ويقف إلى جانبه في هوّته، وفي البحث عن هويته، ويحاول أن يقيل عثرته، ويجبر كسره، ويعينه على الوقوف على قدمَيه من جديد.

ففي قلمه شيءٌ يشبه السحر العذب وما هو بالسحر، إِنَّهُ سِرٌّ إلهي يُقْذَفُ في جوف بعض الأقلام المجتباة فيحيلها إلى عمود نوراني يصل بين الأرض والسماء، فإذا ما اهتزَّتْ هذه الأقلام صعقت قلوبنا بقدحة من نور تفجر فينا ينبوعًا نورانيًّا دائم الدفق والعطاء.

فنحن بإزاء أديب صاحب رسالة إحيائية كبرى، وهَبَها روحًا فَوَّارًا، ومنَحها فؤادًا صادقًا، وَزَقَّها لُبًّا ذكيًّا، وألقَمَها عزمًا شهمًا، نهض للحق، وتمنطق بالحق، وشَدَّ بالحق إصره، ولكنه لم يدقَّ طبلاً، ولا أثار غبارًا، ولا أحدث جعجعة، ولا نبش قبرًا، ولا كشف سترًا، ولا نفش عهنًا. لقد سطعت الحقيقة لعينيه، فرأى في مرآتها نفسه، والتقى جوهره، وأدرك سِرَّ وجوده، وظلَّ لصيق كلِّ حَقٍّ وحقيقة، وَخِدْنَ كُلِّ جمال وجلال، وخليل كُلِّ مَنْ قُذِفَ في النّار فلم تحرق النَّارُ قلبه، ولم تأكلِ النَّارُ روحه.

٥- أوجاع "إسطنبول"

هذه "إسطنبول".. باتَتْ جسدًا بلا روح، تاريخًا مَوَاتًا بلا قلب، شرابًا مُعَتَّقًا يكرع منه الغرباء بلا حساب، قارورةَ عطرٍ يتنشَّقَه بالمجان كُلُّ عابر سبيل، ومثال جمال تتقحمه العيون بلا رقيب، دُمْيَةً يسيل لها لعاب الطامعين، لؤلؤةَ لُقًى على قارعة الطريق، ومنارة هدى أفَلَ هداها وغاض ضوءُها...

و"الفاتح" نفسه غاب واغترب... ابتلعه قَعْرُ التاريخ، وطواه ضباب الزمن.. وفي ليالي الضلال يُسْمَعُ صوتُ نُواحِهِ: "مَنْ أَنَا؟ أينَ أَناي؟ فَقَدْتُ ذاتي.. صريعة هي روحي.. قتيلة هي نفسي.. ذبيح هو وجودي.. وصوتي في ضوضاء الأصوات ضاع.. وخَطْوي في زُحام الخُطى تاه.. أعتلي المنائر، أفتش عن سيفي فوق المنابر.. أتفقّد المحاريب.. أفتّش أروقة المساجد.. ولكني لا ألتقي ذاتي، ولا أَتَعَرّفُ على نفسي"..!

يا ويحَ إسطنبول.. ما أشدَّ أوجاعها... صراخها يُقَطِّعُ نياط القلوب: "أدركْني سيدي.! أَسرعْ إليَّ.. خُذْ بيدي.. طِبَّ قلبي.. امْسَحْ جراحات روحي.. هَبْ لي قلمك.. امنحني قلبك وفكرك.. أعطني من إِيمانك إِيمانًا، واسقني من بَرْدِ يقينك يقينًا"..!

٦- الهاوية والسقوط

الانحلال الذي دَبَّ في روح الأمّة العثمانية، وعاث فسادًا في عقلها أواخر أيام حياتها، قد وَأَدَ ذاكرتها الإيمانية، ومسح مرآة وجدانها من كثير من صور الأمجاد التي حفل بها تاريخها الإيماني. بينما توقف زمنها العتيد صامتًا حزينًا في انتظار عودة الذاكرة المَوْؤُودة إلى سابق عهدها، غير أنَّ معاول الهدم التي كانت تهدم في كيانها منذ أجيال بصمتٍ كتوم كادت تجهز على البقية الباقية من هذه الذاكرة، وأدّى ذلك إلى زوال التأثير الإيماني على مجمل حياة الأمّة الأدبية والفكرية مما دفع بحياتها الثقافية إلى الافتقار.. والرأس الذي كان يومًا ما يناطح سماء العظمة الإنسانية بدأ يتطامن حتى لامس غبار الأقدام، وشحنة العظمة التي كان توهجها يضيء الخافقين عادت رمادًا...

٧- أدب الإيمان

وعندما أقفرت سماء تركيا من أي نجم هادٍ، يذكّرها بإيمانها، ويعيد إلى قلبها ما سُلِبَ من نوره، وإلى عقلها ما سُلِبَ من رصانته، سطع نجمُ النورسي فجأة، وأضاء الآفاق، وأشعل قناديل الآمال، وأنار طريق الخلاص.. فحمل روحه العظيم آلام عصر كامل من الانكسارات، ناذرًا قلمه من أجل الخلاص الروحي الذي لا خلاص للأمّة مما تردّت فيه من خذلان سواه.. فبدأ ذهنه الحُرُّ الأصيل يتصاعد كاللَّهب إلى آفاق عالية من أدب الكلمة المذكرة بجذور الأمّة الإيمانية، والساعية لانتشالها من هاوية الانسحاق الشائن الذي دفع بها خارج تاريخها المؤثَّل.

وكان لا بد لهذا التوجه الأدبي النورسي الجديد أن يجافي التوجه الأدبي الغربي، لأنه أدب -كما يقول النورسي- أسطوري ملحمي روائي استعلائي اغتصابي، له رأي في الكون والإنسان والحياة غير الرأي الذي يراه أدب الإيمان.

وعلى الرغم من أنَّ الإنسان اليوم يكاد ينسى أنه كان يومًا ما يخرج إلى البراري ليصطاد فرائسه ويغتصبها اغتصابًا من يد الطبيعة، إلاّ أنَّ "الغرب" لا ينفك يُذكِّرُ اليوم بتلك الحقبة المتوحشة من تاريخ الإنسان، ويعود ليربّي في الإنسان ذلك الشعور الحيواني المتوحش، ويغريه باغتصاب اللقمة من أفواه الجائعين وسرقة ما تحتويه أرضهم من كنوز كما يقول النورسي.

النورسي من منظور الأستاذ حسن الأمراني

كتب الأستاذ "الأمراني" عن "المنحى الأدبي والشعري عند الإمام النورسي" رحمه الله في رسائله.

والأستاذ "الأمراني" أديب وشاعر وناقد معروف.. فتقويمه للإمام النورسي، وعدُّهُ واحدًا من كبار الأدباء والشعراء، يأتي ضمن دراسة نقدية مُعمَّقة يمكن الاطمئنان إليها والوثوق بها.

وإلى ذلك فإنَّ هذا الكتاب يكتسب أهمية خاصة لدى المعنيين بالأدب لكونه محاولة جادّة في الكشف عن الصلة والنسب بين العبقرية الشعرية والعبقرية الدينية.. فالعبقريتان كلتاهما تنبعثان من رهافة وجدانية عميقة الغور في النفس الإنسانية.

فما من عبقري في الشعر إلاَّ وله من الدين ملمح أو ملامح عُرف ذلك أم لم يُعرف.. وما من عبقري في الدين إلاَّ وله من الشاعرية قسط قلَّ أو كثر، يرمز إلى ذلك ويومئ إليه تلكم المعلقات من درر الشعر على جدران الكعبة أول بيت للدين على وجه الأرض. أما الأبلغ في الإفصاح فنلتقيه عند شعراء الصوفية، أو صوفية الشعراء، منذ أقدم الأزمان وحتى هذا اليوم.

ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا -ونحن نشير إلى الصلة والنسب بين الدين والشاعرية- أنَّ "العربية" نفسها التي نكتب بها شعرنا، ونقرأ بها قرآننا، هي صنو الكعبة، صفت ورقَّتْ وَعَذُبَتْ وتهذّبت بألسنة القرشيين خُدَّام البيت الحرام، حتى غدت كائنًا روحيًّا يتدفق بالحياة والخيال والشاعرية وبالنفحات الدينية. فالأديب أو الشاعر الذي يكتب بها تأتي كتاباته مثقلة

بكل هذه الخصائص، ومحمَّلة بإرث لغوي شاعري الهوى، ديني المنزع، فلا جرم أن تكون بعد ذلك مبعث أي إبداع في الدين أو الشعر.

والأستاذ "الأمراني" يشير إلى أنَّ "رسائل النور" مكتوبة بالأساس لخدمة الإيمان والقرآن، غير أن منحاها الأدبي والشعري ملحوظ في الكثير منها.. وأما كتابه الفذ "المثنوي العربي النوري" فهو الأكثر توكيدًا على هذا المنحى، وعلى عمق الشاعرية عند هذا الرجل. فقارئ هذا الكتاب يستنشق عبير شاعرية النورسي فوّاحةً من بين الكلمات والسطور. الأمر الذي جعل "الأمراني" يفرد بحثًا كاملاً للمقارنة بين شاعرية النورسي وشاعرية إقْبال، مشيرًا إلى الكثير من نقاط الالتقاء بين الشاعرَين، وإنَّ أبرز ما يختلفان فيه، هو أن "إقبال" شاعرٌ قبل أن يكون مفكّرًا، أما النورسي فهو مفكّر قبل أن يكون شاعرًا. ولم يَرَ الأستاذ "الأمراني" بأسًا في كون النورسي لم يقل شعرًا كما قال الشعراء، ولم يلتزم بضوابط الشعر وقواعده، فلم يلتفت إلى هذا، ولم يلقِ إليه بالاً، لأنَّ الذي يهمّه من النورسي روحه الشاعرية، فأبان عنها وشخّصها وأتى بالنماذج التي تفصح عنها. وأكبر هذه النماذج وأعظمها الْتقاها الأستاذ "الأمراني" في كتابه "المثنوي العربي النوري".

ولئن كان الإمام النورسي معروفًا كمفكّر ديني كتَب للإيمان والقرآن، إلاَّ أنَّ قلّة من المعنيين بجديد الفكر تهيأت لهم فرصة معرفته عن كثب، واكتشاف عبقريته الأدبية، ومنهم الدكتور "الأمراني".

وأحسب أن هذا الكشف سيسهم بتعريف المثقفين بـ"النورسي الأديب" إلى جانب "النورسي رجل الإيمان والقرآن".

والأستاذ "الأمراني" يرى أنْ لو تهيأَ للمثنوي مَنْ يترجمه إلى إحدى

لغات العالم الأكثر انتشارًا، لكان من الممكن أن يحظى باهتمام وتقدير كبيرين من أوساط واسعة من المثقفين في الغرب كما يحظى "مثنوي" الرومي اليوم، لأنَّ الإمام النورسي في "مثنويه" هذا، قد خاطب القلب الإنساني الذي هو واحد عند العالمين جميعًا، واستطاع أن يجد المنفذ إليه، بل كان قادرًا على أن يبعث القلوب الميّتة من مدافنها، وينشئها إنشاءً آخر، ويعلو بها، ويزيد في تزكيتها حتى تصبح مرآة صيقلة قابلة لاستقبال تجليات ربّها، ولتغدو -بعد ذلك- منبعًا نورانيًّا عظيمًا تستقي منه القلوب أنوارها، وتجد فيه النفوس راحها وريحانها.. والقلم الذي يستطيع هذا كُلَّهُ لا شك أنه قلم أديب روحاني المنزع، إلهي المشرب.. وهذا هو الذي أراد الأستاذ "الأمراني" أنْ يجليه للقراء من خلال هذه البحوث التي بين أيديكم.

obeikandl.com

هكذا علَّم "النورْسي"

١

يا قلبُ يا هَيْمَان.. يا روحُ يا عطشان.. يا ظاميءُ يا إنسان.. يا مُقْفِرَ الوجدان.. ويا مُجْدِبَ الْجَنَان... هذا معين القرآن بين يديك.. وهذا ندى الرحمن يَنْهَلُّ عليك... بُلَّ حَرَّ فؤادك.. واسقِ عطش روحك.. ارْتَضِبْهُ من شفاه الخلود.. وتَرَحَّقهُ من رحيق الأبدية...

هكذا هتف بنا النورسي.. وإلى هذا دعانا...

٢

في الرأس نارٌ تستعر.. وأُفُق الفكر بالدم يتضرَّج.. وفي الضلوع شوقٌ يتأجَّج.. والروح لواعج.. والقلب حرائق... نظره حسير.. وفي البارقات الخالبات الفانيات غريق... أين منك الوجود يا غريق الفناء.. وأين منك النور يا أليف الظلام... النور والجمال والخلود في القرآن...

هكذا عَلَّمَ النورسي...

٣

يا إنسان... يا صاحب العقل الأرقى.. والفكر الأرحب.. والروح الأعظم... يا كونيًّا لا يكبح.. يا إرادةً لا تحصر.. يا سرَّ الله في أرضه.. يا نفخةً من روحه.. يا مَنْ تعالى على الكون.. وتسامى على الوجود... لا تمتْ في قفرٍ مدقع.. ولا في ظلام موجِع... انْتَبِه.. قُدَّامكَ الخصب الماتع فارتع.. والرواء السابغ فَعِلَّ... إنَّه القرآن ينبوع الجمال.. وربيع

زهور الإيمان...

هكذا قال لنا النورسي...

٤

أيُّها الهَوَّامةُ في أحلام الجمال... لا تقف وقفة المأخوذ.. لا تتابع خيالك الرَّواغ.. لا تذهبْ في غيبوبة نشوةٍ لا تدوم... يكفيك شربًا من حِرَارِ العَبَراتِ... يا لمرُوج روحك الخضر كيف أتلفها حاصبُ شَكٍّ لا يرحم... فالنفس منك في كرب.. والفؤاد منك في أسى... ففيك فراغ مرير لم يملأه أحَدٌ بَعدُ.. وفي روحك خَلاَءٌ مميت ينتظر الآتي من وراء سُدَفِ الغيب... هذا هو القرآن... خُذْهُ بقوة.. أسكنه روحك.. وأجلسه على عرش قلبك.. تمتلئ وجودًا... وتخصب حياةً... وتترع خلودًا...

بهذا بشّرنا النورسي...!

٥

تحرَّوا -يا إخوتي- عن ليلة قدركم في سماء نفوسكم.. وتعرضوا فيها لنفحات ربكم... فإنْ وجدتم روحًا زاكيًا في الأعالي.. وقلبًا خاشعًا ساجدًا في الليالي.. فتلكم ليلة قدركم، فلا تضيعوها.. وانثروا حبَّات عمركم فيها.. صونوها في دواخلكم.. ولتكنْ معكم وفيكم أبدًا.. أينما كنتم.. وحيثما سحتم وسرتم... فتتنزل عليكم الرحمات.. وتفيض عليكم الإشراقات.. وتلقى عليكم محبّة من ربكم.. وتُصنعون على عينه... فيكون محْياكم ومماتكم بالله، ومن الله، وإلى الله... فهو تعالى صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيكم...

obeikandl.com

هذا هو الدرس الذي لا زلنا نتعلمه من النورسي...

٦

مَنْ يشتري آلامي.؟! مَنْ يعطني قلبه مَعينًا أنهل منه.؟! أين شهب النور خارقة الأذهان.؟! مَنْ يهبني إدراكه العالي.؟! مَنْ ينهضني من كبوتي.؟! مَنْ يأخذ بيدي لنجوب الفضاء ونسامر الأكوان؟! مَنْ ينقذني من سطوة "أناي".؟! مَنْ يسلمني إنسانيته دون مقابل.؟! مَنْ يخبرني مَنْ أنا.؟ ولماذا أنا.؟ وكيف أنا.؟ فَانٍ أنا.. مَنْ يجلسني فوق قِمَّةِ الوجود.؟! مَنْ يوقظ قوى الإبداع في ذهني.؟! مَنْ ينقذ سفينة روحي من الغرق في أمواج البلاء.؟! مَنْ يفعل ذلك وكُلَّ ذلك غير النورسي..؟!

٧

يا إنسان.. يا ضوءً شاردًا في الآفاق.. يا صوتًا باكيًا في الأعماق.. يا نَايًا ناحبًا في الأسماع.. يَا وَجْدًا حائرًا.. يا فكرًا تائهًا.. يا ليلاً بلا نهار، وشتاءً بلا ربيع.. يا ثورة روح.. ويا بركان غضب... على نَفْسِكَ جَنَتْ نَفْسُكَ.. جَرَّعَتْكَ العذاب.. وسقتك الْمُرَّ والعلقم... كن شجاعًا، واطرح نَفْسَكَ جانبًا... اخْلعْ عن نفسك نير نفسك... اقْتلْها بسيف الحق.. وَارِهَا التراب... وتَعَلَّمْ كيف تحيا بالقلب، لا بالنفس.. وبالروح، لا بالجسد...

٨

لا أهرق دمًا.. ولا أستبيح مشَاعرَ، ولا أعجن خبزي بدموع أحد، ولا أتَّجِرُ بالإسلام، ولا آكل الدنيا بديني... أجوع أنا، لتشبع أنت.. وأتنفّس الصقيع، لتتدفَّأ أنت... أفتقر أنا، لتغْنى أنت... وأموت أنا، لتحْيا أنت...

Obeikandl.com

كم من مصيبةٍ كتمتُها حتى لا أؤلمك.. وكم من عذابٍ جُرِّعتُهُ وحدي فأخفيته كي أتحمل معي همَّه... أنت وديعة الله عندي، إئْتمني عليك.. روحي فداء روحك.. ونفسي وِقاءُ نفسك...!

لقد أذَبْتُ حَشَاي.. وأكلتُ فؤادي، وما مدَدتُ يدًا لأحد... أموتُ ولا تدخل جوفي لقمة مغموسة بِمَنِّ إنسان...

هكذا قال النورسي، وهكذا علَّمَ...

obeikandl.com